العدد السادس والعشرون
2009

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا
1377 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2009 مسيحي

- ملامح عن المذهب المالكي في الغرب الإسلامي
- الخطاب الإسلامي مميزاته والتحديات التي تواجهه
- الشيخ محمد عبده وصلاته بأعلام الإصلاح في المغرب الكبير
- اللغة وصناعة الهوية

الشيخ محمد عبده

وصلاته بأعلام الإصلاح في المغرب الكبير

د. محمد مسعود جبران

ليس من قصد هذا البحث أن يتوسع في الترجمة للشيخ محمد عبده (1842/ 1905) باعتباره من الأعلام البارزين في جمعية العروة الوثقى، ومدرسة المنار، أو يتتبع مراحل حياته ومساهماته التأليفية، ومساقات تكوينه العقلي الذي شكل تفكيره ووجدانه الخاص، أو يدرس ما أثير حول نشاطه الفكري المثير من مآخذ وتساؤلات[1] فقد كتبت في جوانبه المختلفة الإيجابية والسلبية عشرات الكتب، ومئات البحوث والمقالات والتعريفات الموزعة بين أشكال المدح والقدح.

وليس من غرض هذا البحث أيضاً أن يقف ليبين بتفصيل صلته بشيخه جمال الدين الأفغاني أو الإيراني[2] وما أحدثه في حياته من تغيير، أو يظهر

(1) راجع على سبيل المثال لا الحصر، ثبت مصادر هذا البحث ومراجعه.

(2) م، ن ـ ولد السيد جمال الدين بن صفدر الحسين الأفغاني في «أسعد أباد» التابعة لخطة كنر (1254/ 1838) حيث تلقى علومه العقلية والنقلية على مشاهير شيوخها، ثم سافر إلى الهند حيث أتقن العلوم الرياضية، وفي سنة (1857) أنشأ مدرسة، وكون من خلالها عدداً من التلاميذ الذين كان لهم تأثيرهم البعيد في أحوالها العلمية والسياسية والاجتماعية مثل محمد عبده =

حدود اشتراكه معه في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية التي امتدت من الهند إلى مصر والشام والسودان وتونس، ثم انخراطه معه أيضاً في الجمعيات والمحافل الأخرى، والتي ذكر بعض الباحثين أنها كانت ـ سواء أعلم مترجمنا وشيخه بذلك أم لم يعلما ـ أنها بأهدافها الخفية مثار شبهات وتُهم: وإنما يهدف هذا البحث إلى إجلاء جانب مجهول من جوانب حياة الشيخ محمد عبده وتاريخه وترجمته، يتصل بإظهار طبيعة العلاقة التاريخية التي نشأت بينه وبين ثلة من أعلام الإصلاح والعلماء في أقطار المغرب العربي الكبير (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا) في أشكالها المباشرة وغير المباشرة، في أخريات حياته ودراسة هذا المظهر من نشاطه العلمي المغمور دراسة وصفية موضوعية تجلو قدر المستطاع ـ والمتوفر من الوثائق والدراسات ـ أبعاداً من هذه الصلات من حيث دوافعها وبواعثها، وأيضاً من حيث الآثار والنتائج المترتبة عنها، والنظر فيها من حيث هل كانت هذه العلائق مجرد علائق دعوية إصلاحية تشاورية مبرأة من الغرض والهوى، ومن الارتباط بمخططات معينة؟ أو أنها كانت ـ حسبما ذهبت إليه بعض الدراسات ـ موظفة لتحقيق رغائب دوائر استعمارية ومحافل سرية كما جنحت إلى ذلك بعض الدراسات والبحوث.

= وسعد زغلول وقاسم أمين (وكان السيد جمال الدين ذا إلمام واسع في الشؤون السياسية إلا أنه كان متطرفاً في حرية الأفكار إلى درجة متناهية، وكتب أثناء إقامته في باريس فصولاً في جرائدها تبحث في سياسة روسيا وإنكلترا وتركيا ومصر، وقد شهد له المستشرق قاينان بقوة البرهان وغزارة المعارف، وكان عارفاً باللغات العربية والأفغانية والتركية والفارسية وتعلم الإنجليزية والفرنسية راجع: الأعلام 6: 168، تاريخ الصحافة العربية: 1: 294 د. محمد عمارة المدرسة الفكرية: 8 رشيد الذوادي (رواد الإصلاح): 91، صلاح زكي أحد أعلام النهضة العربية: 35 وقد أثار الدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله ـ في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» قضايا ومسائل مختلفة تتصل بهذه الشخصية وتختلف مع المعلومات التي تعارفت عليها المصادر السابقة.

إننا إذا استثنينا قلة من الدارسين والباحثين المشارقة يبرز في طليعتهم الشيخ محمد رشيد رضا صاحب «مجلة المنار»[1] فإنه يمكن القول إن جلَّ أولئك لم يعرضوا لبيان صورة الجدل الثقافي والفكري بين الشيخ محمد عبده، وبين أقطار المغرب العربي الكبير»، ولم يتناولوا صلة هذا الشيخ بأعلام تلك الأقطار وعلمائها، ولم يذكروا في بحوثهم الكثيرة والمفيدة هذا الجانب المغفول عنه والمتمثل في تفاعل المغاربة مع أفكاره الصحيحة ودعوته، الخالصة الصريحة، وامتزاجهم بحركة جمعية «العروة الوثقى» وجريدتها، التي كان أحد مؤسسيها ومتابعتهم لمجلة المنار وآراء الشيخ محمد عبده المبثوثة فيها، ومقالات الشيخ محمد رشيد رضا وما كان يشيعه من فكر شيخيه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وما يطرحه من أفكاره الخاصة، وتصوراته المؤيدة لهما.

والحق أن تلك الصلة بين الشيخ محمد عبده موضوع هذا البحث وبين العلماء المغاربة ثابتة محققة ومؤكدة، بل إنَّ من الطريف الذي تكشف عنه سيرة الشيخ محمد عبده أن هذا الجدل الفكري مع المغاربة ـ نشأ مبكراً، وظهر ـ كما سنوضح منذ مراحل حياته الأولى في طفولته المتأخرة قبل رجولته إبان جدله مع أهل الشرق وأوربا وذلك حينما تأثر بتوجيه المتصوف الشيخ

(1) هو السيد محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني، البغدادي الأصل الحسيني النسب صاحب جريدة «المنار الشهيرة ولد في القلمون سنة 1282 ـ 1865» تعلم في طرابلس الشام، وكتب مقالات في بعض الصحف، ثم سافر إلى مصر في أواخر القرن سنة (1315/ 1897) فلازم الشيخ محمد عبده، وكان قد عرفه من قبل في بيروت أنشأ مدرسة «الدعوة والإرشاد» بمصر، ثم عاد إلى سورية وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري، وغادرها عند احتلال الفرنسيين لها ورحل إلى الهند والحجاز، واستقر نهائياً بمصر إلى أن توفي فيها سنة (1354/ 1935) من أهم مؤلفاته «تفسير القرآن الكريم»، وتاريخ الأستاذ الإمام في ثلاثة مجلدات، والوحي المحمدي، ومحاورات المصلح والمقلد ومجلة المنار التي أذاع فيها تفسير أستاذه وآراءه راجع صلاح زكي أحمد «أعلام النهضة العربية الإسلامية» 76. خير الدين الزركلي (الأعلام 6: 621 فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية).

حسن درويش خال والده، الذي غرس فيه حب العلم، والنقاء الصوفي الباطني الذي كان قد تأثر به في سياحته الصوفية في ليبيا[1] بالحركة الصوفية السنوسية[2] وبالطريقة الصوفية المدنية[3] في مصراته ثم أتى بقبس من ذلك المدد الروحي الصوفي إلى موطنه مصر من أراضي برقة وطرابلس الغرب، حيث كتب للشيخ محمد عبده أن يهتدي في دياجير الظلمة التي أحاطته بهداه، وليستنير في ظلامها الدامس بسناه، أو بعبارة أخرى، إن هذا القبس الروحاني الذي أنار به الشيخ حسن درويش محمد عبده في صباه، هو الذي أحدث في حياته الحائرة وأفكاره المختلطة الغامضة في طفولته ذلك النور الصوفي المغربي السارب الذي لامس قلب الفتى محمد عبده، فقلب مجرى حياته، وصيره من

(1) عباس العقاد، محمد عبده 88 الإمام محمد عبد الله شحاته 32.

(2) نسبة إلى الإمام أبي عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطابي (1202/ 1787 ـ 1276/ 1859) من العلماء المتصوفة، أصله من قبيلة بني سنوس في تلمسان بالجزائر، ولقد كان لطريقته أثرها البالغ في ليبيا وفيما جاورها من الدول، وتقوم تعاليمه (على مزج العبادة بالعمل، فلا تصوف بدون عمل، وتعظيم فريضة الجهاد وتوجيه المريدين إلى الاشتغال بالحرف لكسب العيش وخاصة الزراعة والغرس وقد كانت تعنى الزاوية السنوسية مدينة متكاملة المرافق، وتحتوى على بيوت للضيافة، ومن المعروف أن هذه الزوايا السنوسية أدت دوراً في نشر الإسلام في أفريقيا، كما خاضت حروباً ضارية في مجابهة الدول الاستعمارية ولمؤسسها مؤلفات فقهية وصوفية كثيرة، طبع عدد منها في الستينيات من القرن العشرين.

(3) تنسب هذه الزاوية أو الطريقة إلى الشيخ عبد الله محمد حسن بن حمزة ظافر المدني من أصلاء المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، وصفه محمد مخلوف في شجرة النور بقوله «قطب زمانه، وعمدة أهل العرفان في أوانه الشيخ الكامل، المرشد الفاضل، العالم العامل» ولد في المدينة المنورة وتعلم بها، ثم خرج إلى السياحة الصوفية إلى أن انتهى به المطاف إلى المغرب الأقصى حيث أخذ الطريقة الناصرية، والطريقة الشاذلية، ثم أسس زاويته في مدينة مصراتة، وانتشرت طريقته المدنية في تونس والجزائر وبعض أفريقية، وله الفضل في إنقاذ المصلح التونسي المشهور الشيخ محمود قابادو من العلة النفسية التي أصابته في صغره، كما كان لتوجيهاته وأذكاره وأوراده الفضل في فكر المصلح المصري محمد عبده كما جاء في مذكراته.

السعداء، حسبما أشار على ذلك الشيخ نفسه[1]، وجاراه في التسليم به كبار الكتاب والمترجمين[2].

والحق إن الشيخ محمد عبده الذي تأثر بهذا المدد الروحي الصوفي في بداية حياته أشعَّ هو الآخر بإشعاعاته في أخريات عمره على الحركات الإصلاحية التي ظهرت على أيدي المصلحين والزعماء في ذلك الأفق المغربي، فكان ما بين هذا الشيخ المشرقي ورجال الإصلاح والعلماء المغاربة من التأثير والتأثر ما نحاول أن نجلو قطوفاً من صورته الغائبة في الدراسات الشرقية، والمتفرقة في بحوث أعلام المغرب وكتّابه ضمن هذا البحث.

والجدير بالملاحظة هنا، أنَّ مظهر هذا التأثير والتأثر لم يكن بالطبع على صورة متماثلة بين تلك الأقطار المغربية وبين الشيخ محمد عبده، بل كان على أنصباء مختلفة ومتفاوتة، ومقادير متنوعة ومتباينة، لعل الحظوة الكبرى فيها كانت للأقطار الواقعة في آخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين تحت الحماية أو الاستعمار الفرنسي مثل تونس التي زارها الشيخ زيارتين، والجزائر التي زارها مرة واحدة، كما يتبين، وهو ما أثار تساؤلات بعض الكتّاب والباحثين حول هل كان للشيخ محمد عبده تنسيق مع فرنسا المستعمرة أو المحافل المشبوهة فيها في هذه الزيارات[3]؟ أو أنها كانت زيارات ودية عفوية لتقوية أواصر الأخوة[4]. بينما نلحظ أن صلاته ببقية الأقطار في هذا الأفق المغربي كانت في الغالب صلات فكرية غير مباشرة.

---

(1) عباس العقاد (محمد عبده): 91.

(2) عباس العقاد محمد عبده: 89، الإمام محمد عبده للدكتور شحاته: 32، الإمام عبده للجندي: 11.

(3) راجع الدكتور محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية.

(4) الدكتور أبو القاسم سعد الله «النشاط الثقافي في الجزائر».

وضبطاً للبحث، وإجلاء لأبعاد بعض الجوانب في حياة الشيخ محمد عبده، وإظهاراً لطبيعة فكرة وتكوينه الإصلاحي وبيان مظهر صلاته العملية بهذه الأقطار المغربية المستعمرة، أو التي كانت في طريقها عهدئذ للاستعمار، فقد رأيت أن أتحدث باختصار عن أهم النقاط التاريخية المؤثرة في حياته، والعناصر المكونة لتفاعله، ثم أتحدث عن أهم ملامح فكره، ومظاهر دعوته وأسلوبه في الإصلاح، لأخلص بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر صلاته الفكرية المباشرة وغير المباشرة مع الحياة الفكرية والحركة الإصلاحية وأعلامها في بلدان المغرب العربي وذلك حسب الترتيب الجغرافي الذي تقدم، وأنتهي من ذلك كله إلى خاتمة وخلاصة مركزة تبين أهم نتائج البحث.

شخصية الشيخ محمد عبده:

هو الشيخ محمد بن عبده بن حسن خير الله[1] ولا نعرف عن أوليته إلا أن بيته يعرف ببيت التركماني[2]، وقد ولد في حصة شبشير من قرى إقليم الغربية، ولكنه نشأ بقرية حلة نصر من قرى مركز شبراخيت بإقليم البحيرة، مسكن سلفه المعدودين من الطبقات الوسطى في ذلك المجتمع[3]، فتطبع منذ نعومة أظفاره على أخلاق الريف، ومثل الشجاعة والفروسية، ويبدو أن أباه رأى فيه مخايل النجابة منذ صغره بين إخوته، فاختاره للتعلم دونهم[4]، فانصرف الفتى إلى حفظ كتاب الله ثم رحل إلى المسجد الأحمدي لتلقي الدروس العلمية، والكتب المقررة على الطريقة الأزهرية ولكنَّ ما رآه من طرق تدريس الشيوخ لها، ومذهبهم في تقريرها

(1) عباس العقاد «محمد عبده»: 80، عبد الحليم الجندي: (الإمام محمد عبده): 7، د/ عبد الله شحاته (الإمام محمد عبده): 25 خير الدين الزركلي (الإعلام): 252 صلاح زكي أحمد «أعلام النهضة العربية الإسلامية»: 63، السيد يوسف الإمام محمد عبده: 11.

(2) المراجع المذكورة ولكن الشيخ محمد الجنبيهي يسميه محمد عبده الغرابلي وينسبه إلى جنس النور.

(3) المراجع المذكورة.

(4) عباس العقاد «محمد عبده»: 84.

وشرحها، صرفه عن مجالسهم، وزهده في الأخذ عنهم، فعاد سريعاً إلى قريته مبدياً امتعاضه من الدرس والتحصيل، وفي قرية كنيسة أورين بشبراخيت التقى بخال والده السيد درويش خضر المتصوف الذي أخذه بالتلطف، وأرشده إلى الطريق وحبَّب إليه تحصيل العلم، فرجع من جديد إلى المسجد الأحمدي، وانخرط في حلق شيوخه، فقدر له الفهم، وثبتت أقدامه على طريق التلقي[1]، والتحق بالجامع الأزهر (في شوال 1282 الموافق لفبراير سنة 1866)[2] وأخذ العلم عن شيوخ بارزين من أمثال الشيخ حسن الطويل المعني بتدريس الحكمة والفلسفة، والشيخ محمد البسيوني المهتم بتدريس الأدب وكتب البيان، كما درس عن الشيوخ المحافظين من أمثال الشيخ محمد عليش الذي تصدى له ولشيخه جمال الدين الأفغاني بالمقاومة والمنع من إلقاء الدروس في الأزهر فيما بعد.

على أن موهبته لم تخرج من أكمامها إلا عند ما التقي بشيخه محمد جمال الدين السيد صفتر المعروف بجمال الدين الأفغاني الذي حلَّ بمصر في سنة (1288/ 1871) والتقى به محمد عبده في مجالسه، فأجج فيه جذوة تحصيل العلم، والترقي في تناول الحكمة والفلسفة والنظر في العلوم الطبيعية، وفتح آفاقه على الواقع السياسي الإسلامي والعالمي، وحرَّك مواهبه وطاقاته للقراءة الدائمة، والحوار المفيد، واستنهض قلمه وتفكيره للكتابة والتحرير[3]. بل تذهب بعض البحوث إلى أنه أدخله في الجمعيات والتنظيمات السرية مثل جمعية العروة الوثقى التي أسسها في الهند قبل مجيئه إلى مصر، ثم في المحافل الأوربية المشبوهة.

---

(1) الأعلام: 255 صلاح زكي أحمد (أعلام النهضة العربية الإسلامية): 63. السيد يوسف (الإمام محمد عبده): 12.

(2) د/ عبد الله شحاتة الإمام محمد عبده: 36 محمد عبده، عبد الحليم الجندي الإمام: 13.

(3) عباس العقاد (محمد عبده) 93، عبد شحاته: 38 السيد يوسف (الإمام محمد عبده) 13، رشيد الذوادي «رواد الإصلاح»: 120.

نال الشيخ محمد عبده الشهادة العالمية من الأزهر من الدرجة الثانية في عهد الشيخ محمد المهدي العباسي[1] سنة (1294/ 1877) ولم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، وشرع بعد ذلك في تدريس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة مع تدريس كتاب «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه، وكتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية، تأليف الوزير فرانسو اجيزو الذي عرَّبه نعمة الله خوري فأحسَّ طلابه في دروسه طعماً جديداً من العلم المتفتح[2]، وفي أواخر سنة (1295/ 1878) عُين مدرساً للتاريخ في دار العلوم وفي مدرسة الإدارة والألسن فاهتم بتدريس مقدمة ابن خلدون وغيرها ثم أُعفي من التدريس في السنة التي نفي فيها الشيخ جمال الدين الأفغاني في مصر (1296/ 1979)[3].

بيد أنَّ رياض باشا[4] الذي كان يشغل منصب رئيس وزراء مصر أسند إليه في السنة التالية تحرير «الوقائع المصرية» فوجد فيها فرصة مواتية للتوجيه والإرشاد ومراقبة الحكومة والمؤسسات من خلال متابعة تقاريرها وانتقادها، ووجد في عهده الفرصة المواتية للتعبير عن نزعته الإصلاحية[5].

وعندما اشتعلت نيران الثورة العرابية في سنة (1299/ 1881) والتي لم يشارك فيها الشيخ محمد عبده على الراجح بل كان له رأي مخالف في مجرياتها،

---

(1) راجع ترجمته في (أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث): 62 السيد يوسف «الإمام محمد عبده»: 16.

(2) عبد الله شحاتة (الإمام محمد عبده): 48.

(3) م،ن: 49.

(4) هو رئيس وزراء مصر في ذلك العهد، ويشار إليه بأنه كان عضواً في المجمع الماسوني وهو الذي استقدم جمال الدين الأفغاني وتولى رعايته، راجع الإسلام والحضارة الغربية. السيد يوسف (الإمام محمد عبده) 18.

(5) عبد الحليم الجندي: الإمام محمد عبده 27.

اتهم، وحكم عليه بالسجن مثل رجالها الذين تربطه بهم روابط حسنة، ثم نفي إلى سورية حيث أقام فيها سنة واحدة[1].

والتحق بعدها بأوربا حيث التقى بأستاذه وصديقه جمال الدين في باريس مدة عشرة أشهر أصدرا خلالها جريدة «العروة الوثقى» التي كان لها تأثيرها البعيد في المشرق والمغرب وفي[2] سنة (1302/ 1884) سافر إلى لندن، وعاد منها إلى باريس[3]، وفي السنة نفسها بدأت صلاته المباشرة بأقطار المغرب العربي، فزار تونس زيارته الأولى[4] ثم رحل إلى بيروت التي تولّى فيها التدريس، وظهر له نشاط في الكتابة والتأليف إذ ألف (رسالة التوحيد) التي صار لها الصيت البعيد في المشرق والمغرب، وعَرَّب رسالة شيخه وصديقه جمال الدين المسماة (الرد على الدهريين) و(شرح كتاب نهج البلاغة) و(مقامات بديع الزمان الهمذاني).

ولم يقتصر نشاطه على ذلك فحسب، بل سعى مع جماعة مثقفة إلى تأسيس جمعية دينية سريّة تجمع الأديان «الإسلام» «والمسيحية» «واليهودية»، وتدعو إلى تقاربها وعدم تصارعها[5] واختلافها، فكان الرائد فيما يعرف اليوم بالحوار بين الأديان.

وبعد أربع سنوات من ذلك النشاط عاد إلى وطنه مصر في سنة (1306/ 1888) بعد انتهاء مدة النفي، فعين قاضياً، وفي سنة (1308/ 1890) رقي مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية، ثم كلل عمله في سلك القضاء والخطط

(1) م.ن: 37، الإعلام: 252 السيد يوسف (الإمام محمد عبده): 18، رشيد الذوادي «رواد الإصلاح»: 122.

(2) م،: 39، الإعلام: 252 السيد يوسف (الإمام محمد عبده): 18، رشيد الذوادي (رواد الإصلاح): 122.

(3) عبد الحليم الجندي (الإمام محمد عبده) 43: 42 السيد يوسف (الإمام محمد عبده): 19.

(4) الحركة الأدبية والفكرية في تونس.

(5) وقد أخطأ الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي ذكر أنه زارها مرتين في الثمانينات.

بأن عين في سنة (1317/ 1899) مفتيا للديار المصرية[1]. ومال لأسباب متعددة إلى سياسة الاعتدال[2].

ومن مناشطه العلمية بعد سنة من ذلك التعيين أي في سنة (1318/ 1900) ظهور ردوده المفحمة على الوزير والمستشرق الفرنسي جابريل هانوتو الذي تهجَّم بجهالة على الإسلام، فكان في نقض محمد عبده لمقالاته الأثر البالغ الذي لفت إليه أنظار علماء الإسلام في البلاد المشرقية والمغربية[3]، وقد صور الشاعر محمد حافظ إبراهيم هذا الرد والنقض بأنه كان مستمداً من تأييد الله:

وقفت لها نوتو ورينان وقفة أمدَّك فيها الروح بالنفحات

وذكر مؤرخوه أنه قام في سنة (1321/ 1903) بزيارة أخرى إلى أوربا، زار خلالها فرنسا وبريطانيا، ثم عرج منها عن طريق البحر، فزار الجزائر وتونس زيارة قصيرة، (فلقي من الإجلال والإكرام ما لم يلقه من قبل[4] حسبما يأتي تفصيله، ولم يتمكن من زيارة المغرب الأقصى، وربما كان سبب رجوعه السريع إلى أوربا ما أشار إليه اللورد كرومر في إحدى رسائله[5]، حينما ألمح إلى أن الشيخ كان يعاني خلال تلك الفترة من أخريات سني حياته من داء خبيث ألم به وهو الذي أنهكه وتوفي به في[6] جمادى الأولى 1323 الموافق 11 يوليو سنة 1905.

ومن مكملات القول في الحديث عن شخصيته، أن نذكر الفضائل النفسية التي عرف بها الشيخ محمد عبده مشرقاً ومغرباً في عصره وأن نذكر

---

(1) المراجع المذكورة.

(2) السيد يوسف (الإمام محمد عبده): 26.

(3) المراجع المذكورة.

(4) أنور الجندي الشرقي في مخبر النهضة: 55.

(5) جريدة المؤيد، العدد 1036 أبريل 1900، الشيخان الأفغاني ومحمد عبده: 33.

(6) ديوان حافظ إبراهيم قصيدته في الإمام محمد عبده.

الطرائق العملية، والأساليب الخاصة التي سلكها في دعوته ووجهته الإصلاحية والتي خالف فيها أسلوب شيخه جمال الدين الأفغاني.

فقد ذكر رواة أخباره أنه كان جريء القلب، رابط الجأش فصيح اللسان، قوي البيان، قادراً على المجادلة والمحاججة، ناصع الدليل، ميالاً في حياته وسلوكه إلى الحرية والاستقلالية، محباً النظر والتأمل، نزاعاً في مذهبه إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة والتوفيق بين الدين والمدنية الحديثة[1] أو بين التراث الصالح والحداثة النافعة.

وقد ذُكرت له في المقابل أيضاً خِلالٌ أخرى سلبية تمس سلوكه ودينه، بل تشكك في وجهته العقدية والسياسية الأخلاقية، وهذا إن صح فمن الغريب الدال من قرب عن ضعف الإنسان وعجزه.

أما غايته الإصلاحية التي سعى إلى نشرها في مصر، وفي البلاد الأخرى التي زارها ومنها قطران من أقطار المغرب العربي وهما تونس والجزائر، فقد تجلّت حسب رأي منصفيه ومناصريه في المظاهر والأسس التالية[2]:

1 ـ تنقية الدين الإسلامي القويم مما شابه من البدع، وتخليص أهله من الجمود الذي غلب عليهم.

2 ـ الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وجمع الشمل بين الأقطار الإسلامية.

3 ـ المناداة بما سماه (جامعة اللغة) والرقي باللسان العربي من الضعف الذي أعجمه وشانه.

4 ـ تقريب المسلمين من المدنية الحديثة، والدعوة إلى الاستفادة من معطياتها الحضارية في الصناعة والتجارة والسياسة على نحو ما استفاده الغرب في القديم من مدنيتنا الإسلامية، فالحضارة في رأيه تقارض أشكال التقدم والرقي.

---

(1) راجع بلايا بوزا لمحمد الجنبيهي، الإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين.

(2) رشيد الذوادي (رواد الإصلاح): 129، السيد يوسف الإمام محمد عبده: 99.

5 ـ التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

أما وسيلته في تحقيق تلك الأهداف، فقد جنح فيها إلى إيثار الأسلوب الدعوي الهادئ الذي يعتمد على التؤدة وطول النفس، وعدم تعجل النتائج، وهو ما يتمثل في النهوض بالعلم والتعليم، ونشر الفكر والوعي بين المسلمين ونبذ الأساليب والمناهج الجامدة في التعليم والبعد عن الطريقة الإصلاحية الانقلابية التي تعالج قضية التخلف الإسلامي من الأعلى بالتمرد على الحكام والثورة عليهم، وهي نقطة الخلاف بينه وبين شيخه جمال الدين الأفغاني الذي كان يرى وجوب الإصلاح من أعلى، بينما الشيخ محمد عبده وبخاصة في أخريات حياته كان يؤثر الإصلاح من القاعدة، ويظهر أن إخفاق الثورة العرابية في مصر التي عذب وشُرِّد أصدقاؤه فيها، وطاله السجن والنفي من جرائها، لفتته إلى المنزع التربوي الهادئ الذي آثره، وحاول بعد ذلك أن يقنع به المصلحين من المشارقة والمغاربة، ضرورة أنَّ التقدم الحضاري الأدبي الهائل، لا يمكن أن يواجه ويجابه إلا بتقدم حضاري مماثل، وليس بنزعات انفعالية وقتية متسرعة وغير مجدية في صراع الحضارات تضر ولا تنفع، بل تجر في رأيه إلى الدمار والهلاك، وسوف نرى أن مدار منهاجه الإصلاحي بعامة ـ والذي بشَّر به في مصر وبلاد المشرق، وأيضاً في بلاد المغرب التي زارها، إنما يقوم ويبنى على نشر الوعي الصحيح، وإصلاح التعليم ومؤسساته، وضرورة الاستفادة من التقدم الحضاري الإنساني الحديث وهو ما ظهر في أتباع مدرسته الإصلاحية.

صلاته بأعلام الإصلاح في المغرب العربي:

ننتقل بعد ذلك التعريف بشخصيته ومذهبه العملي في الإصلاح إلى الموضوع الرئيس للبحث، وهو بيان صلاته المباشرة وغير المباشرة بأعلام الإصلاح في أقطار المغرب العربي، لإظهار تأثير فكره وتفاعله مع العلماء

والزعماء المصلحين فيها، على أننا ـ قبل الدخول في تفاصيل ذلك كله ـ نقرر هاتين الحقيقتين:

أولاهما: أن هذه الأقطار المغربية كانت تمر منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين مثل البلاد الإسلامية في المشرق بأسوأ ظروفها السياسية، فقد احتل جزء منها أي ثلاثة أقطار بالفعل وهي الجزائر وتونس والمغرب، بينما كانت طرابلس الغرب تنتظر وترقب هي الأخرى مع موريتانيا مصيرهما الرهيب الغامض من الاستعمارين الإيطالي والفرنسي البغيضين. أي كانتا في مرحلة القابلية للاستعمار.

ثانيهما: أن هذه الأقطار المغربية ـ نتيجة هذا الواقع السياسي والاجتماعي والفكري المتردي ـ شهدت قبل زيارة الشيخ محمد عبده إلى بعض أقطارها، وقبل وصول فكره عن طريق المؤلفات والمجلات والجرائد حركة إصلاحية دينية قوية، أعجب الشيخ عبده نفسه بتيارها ورجالها، وهذا لا ينفي بالطبع دوره في توجيه بعضها وأثره في تكوين مصلحين جدد، وبالمقابل إيجاد معارضة مقاومة لتيار المجددين بل لمقاومة فكر الشيخ عبده نفسه.

والسؤال الذي نود طرحه ـ قبل المضي في استقراء صلاته بأعلام الإصلاح في الأقطار المغاربية، هل كان الشيخ محمد عبده مدفوعاً في صلاته مع بلدان المغرب برغائب الدول المستعمرة وبخاصة فرنسا، وأنه كان يؤدي دوراً لها ولمحافلها السريّة المشبوهة؟ وهل عمل على تكوين خلايا سرية فيها واستطاع أن يجاهر بفكره التنظيمي، أمام المصلحين، أو أنه مال في هذه الزيارات في أخريات حياته إلى الاعتدال، واكتفى بمداهنة تلك المؤسسات التي ورطته واختارته لهذه المهمة الصعبة؟. حرصاً على هدايتها وبيان الطريق الأوفق لها.

أ ـ صلته بأعلام الإصلاح في ليبيا:

كانت صلة الشيخ محمد عبده بليبيا، أو طرابلس الغرب ـ كما كانت تسمَّى عهدئذ ـ صلة محدودة وغير مباشرة في الغالب، إذ كانت ليبيا محكومة بالحكم أو

العهد العثماني الثاني الذي امتد منذ سنة (1251/ 1835) إلى سنة (1329/ 1911)[1] وقد عرف لمحمد عبده موقف الحذر من الحكم العثماني منذ الثورة العرابية في مصر، ونحن إذا تجاوزنا أسماء قلّة من طلاب العلم الليبيين الذين أخذوا عنه العلم في الأزهر في أواخر القرن التاسع عشر، فإننا نرى أن الوشائج والصلات الرابطة بينه وبين هذا القطر الأدنى من أقطار المغرب العربي مجرد وشائج وصلات فكرية تجريدية محدودة وغير مباشرة، تشير في مجملها إلى اتصال ثلة من النخبة الليبية في ذلك العهد الذي سبق الاحتلال الإيطالي بفكره وفكر أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني.

بيد أن الطريف في هذه الصلة المحدودة مع ليبيا أنها ابتدأت كما سبقت الإشارة في فترة مبكرة من حياة محمد عبده، وأنه كان فيها الآخذ المتلقي عن طريق الفكر الديني الصوفي الرائج في البيئة الليبية، آنذاك والذي كان له التأثير الفعال على مجرى حياته التي كانت تمر ـ بمرحلة قلق وتوتر وزهد غالب في التحصيل، وعزوف مستبد عن حلق الشيوخ في الأزهر، وازورار عمّا كانوا يدرسونه من كتب وفنون مالوا فيها إلى الإغراب والإظلام، ولم ينقذه من هذه الحيرة الدامسة، والذهول ـ كما أسلفنا ـ إلا خال أبيه الشيخ درويش خضر[2] أحد المتصوقة الزهاد، الذي تأثر في حياته بما أخذه وتلقاه من أوراد صوفية، وذكر ورسائل في أثناء رحلاته إلى الأراضي الليبية من انخراطه في الزاويتين الصوفيتين التربويتين الزاوية السنوسية في برقة، والزاوية المدنية في مصراتة،

(1) راجع شارل فيرو «الحوليات الليبية، رأفت غنيمي الشيخ» في تاريخ العرب الحديث فرنشسكو كورو «ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني» وأحمد صدقي الدجاني «ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي».

(2) عباس العقاد (محمد عبده): 88 عبد الحليم الجندي (الإمام محمد عبده): 9، د/ عبد الله شحاتة (الإمام محمد عبده): 32 السيد يوسف (الإمام محمد عبده) 12.

وكلتاهما من زوايا الطرق الصوفية التعبدية السلفية المشهورة في البلاد الليبية[1] وقد قص الشيخ محمد عبده أخبار هذه المرحلة القلقة من حياة طفولته التي زهد خلالها في العلم الذي تلقاه في الأزهر، وميله الذي غلب عليه وقتئذ إلى اللهو والزهو والفخفخة حسب تعبيره ثم كيف لقي الشيخ درويش خضر أحد أتباع الزاوية المدنية الطرابلسية الذي أخذ جماح عناده بلطف، ومال إلى ترويضه إلى أن سلمه بعض ما كان يقرأه من الرسائل الصوفية التربوية للسيد محمد المدني الطرابلسي والتي كان يكتبها إلى بعض مريديه، والتي عزف عنها الشيخ بل الفتى محمد عبده في البدء، ثم عاد إلى قراءتها، وتأمل معانيها حتى أحدثت في حياته وعقله بل في أعماق روحه الانقلاب الكبير الذي غدا بفضله مهذباً سوياً، يحب العلم وأهله، ويعول على الفضائل، ويحتقر الصغائر، ومما جاء في مذكراته التي أفصح فيها عن مظهر هذا التحول الروحي بتوجيه الشيخ خضر والرسائل المدنية الصوفية قوله: (كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس، وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا، لم يأت عليَّ اليوم الخامس[2] إلا وقد صار أبغض شيء إلي ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم، وفي اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم؟ فقال طريقتنا هي الإسلام.

فقلت أوليس كل الناس بمسلمين؟، قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير

(1) راجع د/ محمد مسعود جبران (محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا) د/ عبد الحميد عبد الله الهرامة (فصول من الحياة الثقافية في ليبيا.

(2) يقصد اليوم الخامس من فترة إقامته في طنطا في قرية (كنيسة أورين) حيث قدر له أن يلتقي في مرحلة الإجازة بالشيخ درويش خضر.

سبب سألته: ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ قال: لا ورد لنا سوى القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر.

قلت: إني لم أفهم القرآن، ولم أتعلم شيئاً.

قال: أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة، وببركتها يفيض الله عليك التفضيل، وإذا خلوت فاذكر الله قال الشيخ محمد عبده في هذا السياق من مذكراته، ذاكراً فضل الشيخ درويش خضر والرسائل المدنية في توجيهه وإنقاذه مما مرَّ به من البلبلة والاضطراب (فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً، وعظم عندي من أمر العرفان، والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي، إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد.

هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر، وهو مفتاح سعادتي أن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا)[1].

فهذا الموقف الذي صوَّر المترجم أبعاده وعمق فاعليته في نفسه يدلنا من قريب على تأثير التجربة الصوفية السائدة في بعض مدن ليبيا وزواياها على روح الإمام، وتوجيه حياته، بل كما ذكر في تحقيق سر سعادته.

ومن الأخطاء التاريخية التي وقع فيها الدكتور محمد الصادق عفيفي ادعاؤه بأن العلامة الليبي المصلح الشيخ محمد كامل بن مصطفى (1828/ 1897) كان أحد تلاميذ الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وأنه امتداد لجمعية العروة

(1) محمد عبده للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد 90، 91 ـ الإمام محمد عبده للأستاذ عبد الحليم الجندي: 1، 11.

الوثقى[1]، ومن الغريب أن تجيء دراسات وبحوث وتآليف، وتذهب بعده هذا المذهب الخاطئ[2] وقد أثبت في أحد كتبي بالأدلة الموضوعية خطأ هذا المذهب، وأن الشيخ محمد كامل بن مصطفى لم يكن تلميذاً للشيخ جمال الدين الأفغاني، لأن الشيخ محمد كامل عاش في مصر في المدة الواقعة بين هذين التاريخين (1263/ 1270) بينما كانت أصلح أيام غرس جمال الدين في مصر في مدة إقامته بها من أول محرم (1288/ 1296) الموافقة (مارس 1871) أغسطس (1879)[3] أي أن الأفغاني نزل مصر بعد أن غادرها الشيخ محمد كامل بن مصطفى الطرابلسي بسنوات عديدة والذي قيل في نفي الصلة بين الشيخ محمد كامل بن مصطفى وبين الشيخ جمال الدين الأفغاني يمكن أن يقال أيضاً في نفي حدوث الصلة بينه وبين الشيخ محمد عبده، وبالأولى نفي أن يكون الشيخ محمد كامل تلميذاً له، فلقد كان الشيخ محمد عبده ـ كما يحدثنا التاريخ ـ صغير السن إبان وجود ابن مصطفى الطرابلسي في القاهرة، بل إن شهادة أو إجازة الشيخ محمد عبده من الدرجة الثانية التي حصل عليها من الأزهر كان منحه إياها الشيخ محمد العباسي المهدي شيخ الأزهر وقتذاك، وقد أسلفنا القول إن الشيخ محمد العباسي هذا كان صديقاً حميماً لمحمد كامل، كما كان زميله في التحصيل، وقد منحت هذه الإجازة العلمية للشيخ محمد عبده عام (1294/ 1877) أي بعد رحيل الشيخ ابن مصطفى عن مصر بسنوات عديدة تناهز أربعا وعشرين سنة[4].

أما التأثير الفكري والإصلاحي غير المباشر من الشيخ محمد عبده على نخبة المثقفين في مدينة طرابلس الغرب فيمكن أن يصح ويسلم به إذا صدق

(1) الشعر والشعراء في ليبيا: 238، الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي: 190.

(2) تجلى ذلك في بعض الرسائل الجامعية التي تناولت الحياة الأدبية والثقافية في ليبيا، والتي لا تزال إلى اليوم مرقونة بالآلة الكاتبة.

(3) زعماء الإصلاح في العصر الحديث: 62.

(4) محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا: 79.

القول الوارد في الوثيقة الغميسة التي اطلعت عليها في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس[1]، والمتصلة بقضية إبراهيم سراج الدين المدني أو المكي الذي قيل إن فرنسا قد طردته من الجزائر، ثم نزل في طرابلس الغرب، حيث التقى بالنخبة المثقفة، وصار يحرك سواكنها بالتعليم والإصلاح فاتهم بتشكيل حزب سمته الإدارة العثمانية في عهد الوالي أحمد راسم باشا حزباً فسادياً ضد الدولة العثمانية، قدم، بموجبه إلى المحاكمة في سنة (1301/ 1883) وبقي هذا المتهم في السجن إلى أن توفي فيه[2]، إن هذه الوثيقة التي كتبها أحد المعمرين تذكر صراحة أن إبراهيم سراج الدين كان صحفياً وكاتباً وخطيباً، وتدل صراحة على أنه كان من تلاميذ الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومن أنصار جمعية العروة الوثقى[3] فيكون تأثيره بذلك من التأثير غير المباشر لزعيمي هذه الجمعية.

ومن أشكال تأثير الشيخ محمد عبده غير المباشر ما تم أو وصل إلى بعض أعلام ليبيا وعلمائها عن طريق أفكاره التي كان ينشرها في جريدة الوقائع، والمؤيد، ومجلة العروة الوثقى[4] وأيضاً في كتبه وتآليفه فقد كشفت وثائق الأديب الطرابلسي أحمد الفقيه حسن (الجد) (1843/ 1886) عن شيء من هذا التأثير، إذ أفادنا محمد الخازمي في رسالته التي أرسلها إلى الأديب المذكور بمتابعة مثقفي طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها الشيخان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس، وحرصهم على الحصول عليها من تونس التي كان يمثل الخازمي فيها مهمة وكيل طرابلس، وقد أخبر الخازمي صديقه أحمد الفقيه حسن (الجد) في هذه الرسالة بأن (العروة) لم تطبع منذ مدة، كما أشار إلى أن محررها يعني الشيخ محمد

(1) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس الغرب ضمن الوثائق غير المصنفة.

(2) توجد هذه الوثيقة في دار المحفوظات التاريخية بالسرايا الحمراء بطرابلس ضمن الوثائق غير المصنفة.

(3) راجع د/ محمد مسعود جبران (أحمد الفقيه حسن وتحقيق ما تبقى من آثاره ووثائقه): 30.

(4) أحمد الفقيه حسن (الجد) وتحقيق ما تبقى من آثاره ووثائقه: 34.

عبده كان في زيارة إلى تونس[1] والخازمي يشير هنا إلى زيارة الشيخ محمد عبده الأولى إلى تونس 1884 والتي سنأتي إلى ذكرها.

ومن أبرز أسماء هذه النخبة المثقفة التي كانت تحرص على اقتناء (العروة الوثقى) من الطرابلسيين ومتابعة مقالاتها وأفكارها الشيخ عبد الرحمن البوصيري والأديب مصطفى بن زكري وأحمد النائب الأنصاري والأديب أحمد شتوان وحمزة ظافر المدني، وأحمد المهدوي وعبد الرحمن نور الدين والهادي الجواب وإبراهيم الحدادية وعبد الرحمن صدقي ومحمد باشالة[2] ولا ننسى أن نذكر في هذا المقام أسمى زعيمين ليبيين أعجبا بالشيخ محمد عبده، وتأثرا بأفكاره، وانفعلاً بدعوته وآرائه الإصلاحية وهما الشيخ سليمان عبد الله الباروني (1873/ 194) والأستاذ بشير السعداوي (1884/ 1957)[3].

أما الشيخ المجاهد سليمان الباروني فقد حل بمصر في سنة (1310/ 1897) للتحصيل والدراسة في الأزهر، ولم يصلنا شيء عن اتصاله أو عدم اتصاله بالشيخ محمد عبده في هذه الإقامة التي دامت ثلاث سنوات كاملة في الديار المصرية[4] كما حلَّ بها وأقام في سنة (1324/ 1906) والتي دامت أكثر من خمس سنوات[5] وقد لمس في الإقامتين ـ دون شك ـ أثارة من صدى الحركة التي رفع منارتها الشيخان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولئن لم نقف على شيء من رأيه في الأفغاني، فقد وقفنا على بعض إعجابه بالشيخ محمد عبده الذي كان يجله، ويصفه بـ (العالم المنصف)[6]، وما من ريب في أنه اطلع على جملة من مقالاته،

(1) محمد مسعود جبران (أحمد الفقيه حسن «الجد») وتحقيق ما تبقى من آثار هو وثائقه: 185.

(2) م، ن: 30، 36.

(3) راجع ميلاد دولة ليبيا لمحمد فؤاد شكري.

(4) سليمان الباروني أثاره:

(5) م، ن: 43.

(6) سلم العامة والمبتدئين: 46، سليمان الباروني آثاره: 38/ 343.

وبعض مؤلفاته، وما من ريب أيضاً في أنه اتصل ببعض تلاميذه الكبار من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ طنطاوي جوهري[1] أما الأستاذ بشير السعداوي فمن المسلم به أنه لم يلتق مباشرة بالشيخ محمد عبده، ولكنه تأثر بآرائه وأفكاره وبخاصة رسالته رسالة التوحيد، التي وصلت في أواخر القرن التاسع عشر إلى ليبيا وتونس والجزائر، وقد أعجب بها هذا الزعيم إعجاباً شديداً، وتعلق بمعانيها وأسلوبها، قال الدكتور محمد فؤاد شكري «وقد سلكت هذه الرسالة ـ في نظر السعداوي ـ أسلوباً جديداً لم يألفه فيما قرأه قبلها، يعتمد على التفكير الهادي الترتيب لبيان العقيدة الإسلامية وتوضيحها، ولما كانت دفاعاً قوياً عن الإسلام يدحض المفتريات التي افتريت عليه زوراً وبهتاناً، فقد تزايد تعلق البشير بالأستاذ الإمام، وراح يقرأ كل ما استطاع أن يعثر عليه من كتاباته»[2].

كذلك حرص السعداوي على قراءة مقالات الشيخ محمد عبده التي كان ينشرها في جريدة المؤيد[3]، وبخاصة مناظرته المشهورة في أوائل القرن العشرين (1899/ 1900) مع الوزير الفرنسي (هانوتو) الذي رمى الإسلام ـ سفهاً ـ بالنقص، وجعله سبباً في تخلف المسلمين، تمهيداً لغزو الفكر الإسلامي واستلابه ليسهل على المستعمرين بعد ذلك غزو أراضي المسلمين واستعمارها[4].

نعود فنقول لقد كان تأثير مترجمنا على مثقفي طرابلس الغرب (ليبيا) كان في الغالب ـ كما تبين ـ عن طريق تأليفه ومقالاته، إما عن الطريق المباشر المتمثل في التلمذة على دروسه ومجالسه الخاصة فقد كان محدوداً جداً، إذ لم نتبين من تلاميذه إلا الشيخ محمود نديم بن موسى المولود بطرابلس سنة (1293/ 1876) الذي أخذ عن شيخه محمد عبده بعض الدروس في الأزهر الذي نال

(1) سليمان الباروني آثاره: 37/ 383.

(2) ميلاد دولة ليبيا الحديثة: 403.

(3) م، ن: 403.

(4) الشيخان الأفغاني ومحمد عبده: 9.

إجازته ورجع إلى بلاده في السنة التي توفي فيها شيخه (1323/ 1905) (حيث ساهم مساهماته المختلفة في مجالات التدريس والقضاء والصحافة[1]، ومع ذلك فإننا لا ندعي أن هذا الشيخ محمود نديم بن موسى كان له تأثير إصلاحي كبير في وطنه طرابلس الغرب.

ب ـ صلته بأعلام الإصلاح في تونس:

في الحق إن الصدمة التي منيت بها تونس من الاستعمار الفرنسي الغاشم المتقدم مادياً في مقابل التخلف الملحوظ الذي انجرَّ على المملكة التونسية والبلاد الإسلامية بعامة بعد انكسار الدولة العثمانية في حرب ناورين (1241/ 1827) والتي دمر خلالها الأسطول التونسي[2]، أحدث هزة عنيفة في كيانها وآل بها إلى الضعف، كما حرَّك تقدم الأوربيين شعور التذمر والتمعر في المتعلمين والمثقفين التونسيين الذين كانت لبعضهم رحلات تأملية إلى أوربا ومطالعات في كتبها وتاريخها[3] وأوجد فيهم قبل الاحتلال وبعده خاصية النظر والتمييز فيما بينهم وبين الغرب الصليبي من تخلف وتقدم، ومن فوارق واختلاف، مما دعا النخبة الرائدة منهم إلى الامتعاض من وضع المسلمين، والدعوة العاجلة إلى ضرورة الإصلاح، والأخذ بسنن الله في الكون لتسير تونس والأمة المسلمة في سبل الرقي والمدنية وهذا المظهر هو ما تميزت به البلاد التونسية عن سائر البلاد المغربية إذ ما فتئ هؤلاء الأعلام التونسيون، بدءاً من عهد ولاية المشير المصلح أحمد باشا إلى ما بعد منتصف القرن العشرين ينهضون بعبء الإصلاح، وقد التقى الشيخ محمد عبده بطائفة غير قليلة من رجاله ورواده الأول الذين رأى

(1) من مظهر الحركة الفكرية والأدبية في ليبيا، الرحلات العلمية وتوثيق السند العلمي في العصر الحديث: 242. للدكتور محمد مسعود جبران ضمن أعمال ندوة المخطوطات والوثائق بزليتن.

(2) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 21.

(3) م، ن: 27 وما بعدها.

فيهم ـ فيما ذكر مؤرخو المرحلة ـ أهلية تامة للحوار والتعاون على نحو ما سيتضح، فزار بلادهم زيارتين، وقويت معهم أواصره الفكرية والإصلاحية.

وقد كان من أبرز المصلحين الذين سبقوا المرحلة التي زار فيها الشيخ محمد عبده تونس، ولم يقدر له اللقاء بهم الوزير خير الدين باشا التونسي[1]، صاحب كتاب (أقوم المسلك لمعرفة أحوال الممالك) والعالم الشاعر محمود قابادو[2] والجنرال حسين[3] وغيرهم من الذين سعوا مثله إلى التوفيق بين الإسلام والمسلمين والحضارة الغربية الحديثة.

أما أظهرهم من الجيل الذي تلا ذلك الجيل وجاء بعده وتزامن وجوده مع زيارتي الشيخ عبده، فهم الشيخ سالم أبو حاجب كبير أهل الشورى للمذهب المالكي ومحمد بيرم الخامس، ومحمد النخلي، ومحمد العزيز أبو عتور وعبد الرحمن الصنادلي، ومحمد السنوسي والبشير صفر وغيرهم.

وصفوة القول إن تونس التي زارها الشيخ محمد عبده زيارتين كانت مسكونة بتيارات قوية من الإصلاح الديني والمدني، من الزيتونيين ومن جماعة الخلدونية والصادقية على حد سواء وربما كان هذا العامل الحيوي مع غيره من العوامل الأخرى سبباً وجيهاً أغراه بالزيارتين إلى هذه الديار ومعرفة أعلامها ومصلحيها، وعقد الصلات مع تيارها الإصلاحي.

لقد زار الشيخ محمد عبده تونس زيارته الأولى في (صفر من سنة 1302هـ نوفمبر سنة 1884)[4] أي بعد ثلاث سنوات من دخول الاستعمار الفرنسي إلى تونس والذي تم في (جمادى الأولى سنة 1298 الموافق شهر مارس

(1) راجع محمد الفاضل بن عاشور تراجم الأعلام.

(2) من مظاهر الحركة الفكرية والأدبية في ليبيا، الرحلات العلمية وتوثيق السند العلمي بحث للدكتور محمد مسعود جبران، أعمال ندوة المخطوطات والوثائق: 1: 267.

(3) محمد الفاضل بن عاشور (تراجم الأعلام).

(4) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 59.

سنة 1881)[1]، وقد أقام الشيخ في تونس في هذه الزيارة (أربعين يوماً)[2] ومن الحق القول إنه ليس بين أيدينا ولا بين أيدي المؤرخين ما يدل على غرضه منها، هل كان مدفوعاً في ذلك برغبة شخصية ترويحية خاصة والاكتفاء منها بلقاء العلماء والأعيان والمصلحين بتونس؟ أو أنه كان مدفوعاً إلى ذلك من حيث يدري أو لا يدري برغبة فرنسية مكتمة ليعمل في ذلك المناخ بنزعته غير الثائرة على تهدئة الخواطر، وكسب الزعامات، والدعوة الهادئة للإصلاح واللفت إلى ضرورة الاستفادة الممكنة من معطيات الحضارة الغربية الوافدة من أجل مستقبل واعد كان يحلم به.

قصارى ما انتهينا إليه أن الشيخ محمد عبده استقبل استقبالاً كبيراً من الراعي والرعية في تونس (وأقام فيها نحواً من أربعين يوماً، تعرف فيها بالملك وولي العهد وأمراء البيت المالك،و أعيان العلماء، وحضر الدروس بجامع الزيتونة الأعظم، وأقام في قصور العظماء، واجتمع في نواديهم، وامتزج برجال العصابة الإصلاحية، وخلا في مجالس متواصلة بأعضاء العروة الوثقى في بيت الشيخ محمد السنوسي)[3] فهي على ذلك رحلة ودادية ترويحية استطلاعية ولكنها لا تخلو من صبغة العمل، ومن صفة التباحث ـ ضمن أهداف جمعية العروة الوثقى سواء في المسائل التونسية الخاصة أو في القضايا الإسلامية العامة[4] وقد أشاد الكثير من الكتاب والمؤرخين بهذه الزيارة، وبتلك الحفاوة التي لقيها الشيخ من الحكام والمحكومين، وبخاصة من أصدقائه الشيخ سالم أبو حاجب ومحمد بيرم الخامس، ومن محمد السنوسي وأعضاء جمعية العروة الوثقى وقد انتهت هذه الزيارة ـ كما تقدم بعد أربعين يوماً ولم يتسرب إلى كلامهم شيء من الشك في وجهة زيارته ومقصودها، وإنما هي في

(1) م، ن: 59.

(2) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 59، أعلام الزيتونة: 114.

(3) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 59/ 60.

(4) م، ن: 60.

نظرهم كما تقدم زيارة وديّة اطلع من خلالها على تونس وتاريخها ومعاهدها وطموحاتها، وربط العلائق بعلمائها وأعلامها ورجال الإصلاح فيها[1] بل أقر بعضهم بعظم فوائدها، وحسن عوائدها. ومن غريب الموافقات ـ مما ذكره هؤلاء المؤرخون والكتاب ـ خروج مظاهرة ضخمة بعد سفره بشهور ـ من مدينة تونس إلى المرسى حيث يوجد القصر الملكي ـ إذ قدموا للملك مطالب وطنية واحتجاجات شعبية، دعوا خلالها إلى الإصلاح، وأعقب ذلك كله حملة قمعية شديدة من السلطات الفرنسية الحاكمة، استهدف فيها الشيخ محمد السنوسي وتمت خلالها ملاحقة أعضاء (جمعية العروة الوثقى)، بتونس والتضييق عليهم بالنفي والإقالة من الوظائف الحكومية، وقد كان ذلك مما آلم الشيخ محمد عبده وأوجعه حينما وصلته الأخبار في بيروت[2].

أما الزيارة الثانية إلى تونس فقد جاءت بعد مدة غير قصيرة وبالتحديد بعد مرور أكثر من ثمانية وعشرين سنة في (رجب من سنة 1321 ـ أوت 1903)[3] ولم يأت فيها الشيخ محمد عبده إلى تونس مباشرة، ولم يجعلها خاصة بها، إنما كانت لاحقة لزيارته أو رحلته إلى الجزائر[4] التي سنأتي للحديث عنها وعن أعلامها ومصلحيها الذين التقى بهم الشيخ عبده.

وربما كان من المستحسن أن نشير هنا إلى الأجواء العامة التي سبقت زيارته الثانية والأخيرة إلى تونس، وتقدمت على حدوثها ليظهر لنا وجه النجاح فيها.

ما من ريب في أن زيارته الأولى في سنة (1302/ 1884)[5] قد أثمرت ثمارها المرجوة في ازدياد إعجاب العلماء التونسيين في جامع الزيتونة وفي الجمعية

(1) الحركة الأدبية في تونس: 58، 59.

(2) م، ن: 60.

(3) راجع الحركة الأدبية والفكرية في تونس، تاريخ الجزائر الثقافي.

(4) ذكر الأستاذ المنصف الشنوفي في الكراسات التونسية أن الشيخ جاء إلى تونس بالقطار.

(5) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 59.

الخلدونية به، وبفكره الحر وآرائه الإصلاحية التجديدية الجريئة التي عرف بها في مقالاته وكتبه وفتاويه، لقد تحلَّق حوله من جديد العلماء الكبار ورجال الإصلاح من أمثال الشيخ سالم أبو حاجب الذي تواصلت بينهما المكاتبة أكثر من عشرين سنة[1]، والشيخ محمد بيرم الخامس[2] ومحمد النخلي[3] كما اتصل به جيل جديد من الشباب المصلح[4] من أمثال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والصنادلي والبشير صفر كذلك انتشرت آراء الشيخ محمد عبده وشاعت قبل هذه الزيارة في أوساط التونسيين عن طريق مجلة المنار التي بدأ تلميذه الأثير الشيخ محمد رشيد رضا في إصدارها منذ سنة (1315/ 1898)[5] فقد تفاعلت طائفة كبيرة من المصلحين والمجددين بأفكارها وآرائها وفتاويها، وأيضاً بما كانت تنشره للشيخ من دروسه التي كان يلقيها في الرواق العباسي بالأزهر[6]، وفي الوقت نفسه أوجدت فريقاً آخر من المحافظين، صار يقف موقف الاستنكار والازورار من بعض أشكال هذا الإصلاح وما يحمله من أفكار وآراء[7] كذلك شهدت

(1) م، ن: 32.

(2) م، ن: 59.

(3) م، ن: 77.

(4) م، ن: 32 راجع المصدر نفسه.

(5) تاريخ الصحافة العربية: الأعلام: 126: 6، الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 73.

(6) تاريخ الصحافة العربية، الأعلام.

(7) نشير هنا ـ على سبيل المثال ـ إلى موقف الشيخ صالح الشريف التونسي الذي تصدى للشيخ محمد عبده في زيارته الثانية لتونس في يوم 16 من سبتمبر 1903 أثناء مأدبة جمعت دعاة الإصلاح في دار الشيخ محمد محسن الأكبر، وكان موضوع الخلاف بينهما تأييد الشيخ عبده لرأي ابن تيمية ومحمد عبد الوهاب في إنكارهما زيارة القبور بعامة، وزيارة ضريح الرسول (ﷺ) بخاصة، قال أستاذنا أبو القاسم محمد كرو «والغريب أن هذا الموضوع نفسه كان سبباً مباشراً في نزاع مماثل بعد سبع سنوات من هذا التاريخ بين الشيخ الشريف والشيخ محمد رشيد رضا =

البلاد التونسية في مطلع القرن العشرين وبالتحديد في سنة (1320/ 1901) بروز مثقف حرٍّ صار يجاهر بتأثره بالإصلاح المشرقي أو كما يقول الشيخ العلامة محمد الفاضل بن عاشور (من طلبة جامع الزيتونة والخلدونية والمنقطعين للشيخ سالم أبو حاجب، والأستاذ البشير صفر، أعني الشيخ عبد العزيز الثعالبي[1] الذي صار يصدع في هذه البلاد بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ويعجب بالكواكبي وحسن حسني الطويراني وعلي يوسف، ويدعو إلى التطور والحرية، وفهم أسرار الدين، وأسرار الوجود، ويغرب بمقالات الحكماء والطبيعيين)[2].

كانت تلك الجواذب مجتمعة، مع ما تميزت به الصحافة التونسية من تمجيد الشيخ محمد عبده وفكره وإصلاحه، وفكر تلاميذه وأتباعه[3] مما حبب إليه المجيء إلى تونس مرة ثانية وتجديد ذكرياته مع أعيانها، وجعله يحمل (المنار على أن تسلك سياسة المجاملة مع الدولة الفرنسية، حتى لا تحجر دخول المنار إلى البلاد التونسية والجزائرية، ولا تمنع الإمام من زيارتهما)[4] والحق أننا لا ندري المدة التي أقامها الشيخ محمد عبده في تونس خلال زيارته الثانية والأخيرة إليها بعد زيارته إلى الجزائر إذ أننا وقفنا على مجرد تاريخ مغادرته لها في 24 سبتمبر سنة 1903[5] ولم نقف على التاريخ المحدد لدخوله إليها عن طريق القطار من الأراضي الجزائرية وغاية ما اطمأننا إليه من أحوال الرحلة أن مناخها العام كان

= التلميذ والمريد الأول للشيخ محمد عبده عندما التقيا بدمشق في الجامع الأموي، حيث تناقشا إلى حد جعل الحكومة تتدخل» راجع حصاد العمر 2: 126، 128، 129.

(1) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 73.

(2) الحركة الأدبية والفكرية في تونس 73.

(3) م، ن: 75، 74.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي.

(5) راجع الأستاذ المنصف الشوقي في بحثه (زيارة الشيخ محمد عبده لتونس) حيث قال (ومن تونس ذهب إلى مالطة ونابلى ولندن).

مساعداً على نجاحها، ومعيناً على تحقيق النتائج المرجوة منها، فقد التقت به النخبة من أعلام تونس من علماء جامع الزيتونة الأعظم ومدرسة الخلدونية، وجماعة جريدة الحاضرة، وهم أنصار جمعية العروة الوثقى ومجلة المنار ولاذت بمجالسة الصفوة منهم من أمثال الشيخ سالم أبو حاجب وعبد الرحمن الصنادلي ومحمد الطاهر بن عاشور ومحمد الأصرم والبشير صفر.

وأتيح للشيخ محمد عبده في ذلك المناخ أن يلقي محاضرة عامة في الخلدونية تحت عنوان يتصل باهتماماته واهتمامات الدعوة التي يحمل لواءها (العلم وطرق التعليم)[1] وقد تولّى تقديمه للجمهور الأستاذ محمد البشير صفر الذي كان ـ كما يذكر الأستاذ أبو القاسم كرو (على اتفاق تام مع تفكير محمد عبده في الاعتماد على التعليم كأهم وسيلة إيقاظ للأمة وتكوين أجيال مسلحة بالعلم وقوته الفعالة)[2] وهي المحاضرة التي نشرتها فيما بعد جريدة الحاضرة وتداولتها بعد ذلك الأيادي في تونس ومصر[3].

والذي لا خلاف فيه أن محمد عبده حرص في مجالسه الخاصة والعامة التي عقدها في تونس على أن السبيل الأمثل والأجدى للإصلاح، والطريق الأقوم للنهوض من كبوة التخلف والانحطاط، إنما هو العمل على فهم الدين الإسلامي القويم فهماً يكشف عن مثله العليا، ومقاصده السامية وأحكامه الشاملة، التي من شأنها أن تبعد المسلمين عن الأوهام والأضاليل والخرافات، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالرقي بالتعليم الديني والمدني، واتباع الطرق الواضحة التي تجمع في تناسق

(1) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 76.

(2) حصاد العمر: 194.

(3) وقد نقلت جريدة المؤيد والمنار وثمرات الفنون هذه المحاضرة في صفحاتها، ثم طبعت مرتين في طبعات مستقلة في تونس ومصر، وقد طلب فرح انطون أن ينشر هذه المحاضرة في مجلة «الجامعة» فأجابه الشيخ محمد عبده (أما ذكرك لمجمل ما ألقيته في تونس فإليك من ذلك ما تحب غير أني أحب أن ينسب إلى جريدة الحاضرة) الشرق في فجر اليقظة: 56.

وانسجام بين المعارف التراثية والمعارف الحديثة، وأن هذا لا يتأتى إلا بالأخذ من التراث الصحيح، والاستفادة من أوربا فيما تقدمت به، ولم يكن الذي ذهب إليه غريباً عن هذا الوسط الإصلاحي التونسي، فقد تردد صداه المدوي منذ عهد المشير أحمد باشا على لسان الشيخ محمود قابادو المتعدد المواهب والطاقات ومن جاء بعده من تلاميذه الوزراء والمصلحين من أمثال خير الدين باشا والجنرال حسين، والشيخ سالم أبو حاجب والشيخ عمر بن الشيخ وغيرهم.

وما من ريب في أن دعوة الشيخ محمد عبده ومذهبه الفكري هذا قد لقي قبولاً واستجابة، وصادف هوى ونجاحاً، وخلف مدداً وامتداداً حتى بعد رحيله عن تونس في 24 سبتمبر سنة 1903.

وقد تقدم ـ عند حديثنا عن حياة الشيخ ـ أنه لم تمض سنتان عن عودته من تونس إلى مصر حتى توفي بالداء العضال الذي أصيب به وذلك في سنة (1323/ 1905)[1]، فكانت لوفاته في نفوس عارفيه وتلاميذه في تونس صبغة حزن عميقة، لم تزدهم إلا إصراراً على تقديره، واتباع طرائقه، واللهج بأياديه.

على أن أبلغ تأثير الإمام عبده في الجيل الذي لقيه واحتضنه في الزيارة الثانية لتونس، هو الأثر الذي ترك طوابعه مجلوة في شخصية شاب عالم أديب نابه من شباب جامع الزيتونة، ومن وجهاء أعيان تونس هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (1879/ 1973)[2] الذي لم يتجاوز عمره أثناء الزيارة الثانية للشيخ عبده سن الرابعة والعشرين[3]، فقد كان ابن عاشور بحق ـ خلال عمره الطويل ـ من أظهر شخصيات تونس التي تأثرت بالمنحى الفكري والإصلاحي للشيخ

(1) الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 75، 76، 77.

(2) راجع بحثنا عنه في مجلة كلية الدعوة الإسلامية (محمد الطاهر بن عاشور والإصلاح التعليمي) ع1 س1.

(3) الحركة الدينية والفكرية في تونس: 75.

محمد عبده بخاصة، والأفكار الظاهرة للشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد رشيد رضا بعامة، فقد تفاعل ابن عاشور بشكل ملحوظ منذ تلك الزيارة ـ بشيوخه ـ مع منهاجه، وطريقة نظره، وعمل في أثناء تدريسه بجامع الزيتونة ومشيخته له بمبادئه حتى سُمِّي في الوسط التونسي منذ لقي الشيخ عبده بـ(سفير الدعوة في الجامعة الزيتونية)، وهي التسمية التي سمَّاه بها الشيخ محمد عبده نفسه، فكان ابن عاشور تتويجاً لصلة الشيخ بتونس وعلمائها[1].

وآية هذا التفاعل أنه حرص على اللقاء به، وحضور مجالسه، بل إنه ألقى خطاباً أمامه عبر خلاله عن التعلق به وبأفكاره، ومما ورد فيه قوله (يا أيها الأستاذ إن مباديكم السامية التي ترمي سهمها الأفلج شوارد تقدم.. قد أوجبت لنفسي نحو لقياكم كثرة اشتياق، مع علو في محبتكم وإغراق، فلا تعجب أيها الأستاذ ـ أيده الله ـ من نفس أظهرت له التعلق عند ملاقاته الأولى، فأنا إن لم نلق شخصه من قبل فقد لاقينا ذكره وخرائده)[2] واقتدى ـ في حياة الشيخ محمد عبده به ـ في التدريس ببرنامجه إذ درس مقدمة ابن خلدون.

كما أنه كتب مقالات تأييدية بالأدلة المالكية فيما أفتى به الشيخ عبده في المسألة الترنسفالية، وفي ذبائح النصارى، ولبس لباسهم وهي الفتاوى التي نشرت في المنار، وأثارت غضب بعض العلماء على مفتي مصر في داخل مصر وخارجها ووجدت تأييداً من محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة المعمور.

كذلك نهض في أثناء توليه مشيخة جامع الزيتونة مرتين بإصلاح الجامع على النحو الذي حاول أن يصلح به الشيخ محمد عبده الجامع الأزهر وحقق

---

(1) المصنف الشنوفي ـ تقديم وتعريف بكتاب الصبح القريب لابن عاشور، حوليات الجامعة التونسية الهدده السنة 1969/ 144: الحركة الأدبية والفكرية في تونس: 76.

(2) م.ن.

مثله عدداً من كتب التراث، وكتب تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم سمّاه (التحرير والتنوير) دلَّ فيه على طول باعه في علوم العربية وعلوم المقاصد، جارى به تفسير الشيخ محمد عبده في النظر والاستقلال والتحرير من الضلالات.

ج ـ صلته بأعلام الإصلاح في الجزائر:

كان قد مر على الاحتلال الفرنسي البغيض للجزائر ـ عند وصول الشيخ محمد عبده إليها في صيف (1321/ 1903) ـ ثلاثة وسبعون عاماً، لاقت خلالها صنوف الظلم والعذاب، وذاق أهلها من الآلة العسكرية الفرنسية المتقدمة ألوان القتل والقهر والإبادة، ولقد تعددت الثورات والانتفاضات عبر هذه السنين، وسجل أبطال الجزائر بطولات ومفاخر، ولكن الفارق الحضاري بينهم وبين الأمة المستعمرة المستبدة كان كبيراً مع قلة النصير من بلاد العرب والإسلام فوقف ذلك الوضع حائلاً دون تحقيق الأمل في النصر وكسب الاستقلال[1].

تلك هي الحالة العامة الغالبة على هذه البلاد حين وصول المترجم إليها في صيف السنة المذكورة بعد زيارته إلى بريطانيا وفرنسا التي قضى بهما أسبوعين[2]، ثم جاء منها مباشرة عن طريق البحر صحبة أبي القاسم الحفناوي المحرر في جريدة المبشر والذي فارق الشيخ عند وصول الباخرة إلى ميناء الجزائر[3] ليلتقي بعد ذلك بالشيخ عبد الحليم بن سماية، ومحمد بن الخوجة، وطائفة من علماء الجزائر ومثقفيها[4]. على النحو الذي تحقَّق له في زيارته الأولى إلى تونس المجاورة.

وما من ريب في أن شهرة (جمعية العروة الوثقى)، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ثم مجلة المنار وصاحبها محمد رشيد رضا كانت قد عمَّت الكثير من

---

(1) راجع العدد الخاص بالإمام محمد الطاهر بن عاشور في مجلة (جوهر الإسلام) التونسية وبحثنا عنه في مجلة كلية الدعوة الإسلامية ع1، ص 1 محمد الطاهر بن عاشور والإصلاح التعلمي.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي: 585.

(3) م، ن: 585.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي: 586/ 590/ 592.

أراضي الجزائـر، وعقـدت الـصلة بـين هـؤلاء الـشيوخ المـشارقة وعلمائهـا ومصلحيها، قال الدكتور عبد الملك مرتـاض (كـان الجزائريـون معجبـين أكـبر الإعجاب ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر بالحركة الـسلفية التـي كـان يتزعمهـا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، كما كانوا يتابعون متابعة مهتمة ما كان ينشر في مجلة العروة الوثقى التي صدرت بباريس سنة أربع وثمانين وثمانمائة وألف)[1].

في المقابل كان الشيخ محمد عبده نفسه على دراية واسعة بـالجزائر وأحوالهـا، وما كانت تمر به من ضيق من وطأة هـذا الاسـتعمار الفرنـسي الجـائر وكـان عارفـاً بحركات الإصلاح فيها، وأسماء بعض أعلامها وأعيانهـا الـذين التقـى ببعـضهم، وصارت بينه وبين بعضهم الآخر مكاتبات ومراسلات، ويمكننـا أن نحـصر هنـا روافد معرفته بالبلاد الجزائرية وبأعلام الإصلاح والتوجيه فيها في النقاط الآتية:

1 ـ ما وقف عليه من أخبارها وأحوالها وطبائع الاستعمار الجائر فيها من صديقه الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان عـلى صـلة بـه وبأبنائـه الأمـراء محمـد ومحيي الدين في أثناء إقامتهم جميعاً بأرض الشام منفيين[2].

2 ـ ما سمعه من أفـراد الجاليـة الجزائريـة المهـاجرة إلى مـصر وتـونس والـشام، وأيضاً في باريس أثناء إقامة المترجم بها.

3 ـ ما انتهى إليه من أخبارها وكفاحها من مشاهير المصريين الذين سبقوه بزيارتهـا من أمثال محمد فريد باشا وعبد العزيز جاويش، وأحمد شوقي وغيرهم[3].

4 ـ ما علمه من علماء جامع الزيتونة والمصلحين في تونس خـلال زيارتـه الأولى لها سنة (1313/ 1885) وبخاصة من صديقه الشيخ محمـد بـيرم الخـامس الذي زار الجزائر زيارات متعددة[4].

---

(1) الجدل الثقافي بين الغرب والمشرق: 73.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي: 583/ 584.

(3) م، ن: 579.

(4) م، ن: 584.

5 ـ من خلال مطالعاته في التقارير والصحف والتآليف الصادرة في الشرق والغرب، ومؤدى ذلك أن الشيخ في زيارته هذه كان على علم تام بالجزائر ومعرفة دقيقة بأعيانها وعلمائها، وأن باعث الزيارة كان واضحاً في ذهنه، ومحدداً في برنامجه، بالرغم من محاولة الاحتواء من فرنسا لهذه الرحلة، وامتناع الشيخ من الاستجابة لذلك.

لقد انقسمت الآراء حول هذه الزيارة إلى الجزائر، فذهب فريق من الباحثين إلى أنها كما ألمحنا ـ كانت مبادرة شخصية من الشيخ محمد عبده للاطلاع على أحوال الجزائر، وتوثيق الصلة مع أعلامها ومصلحيها، وهو ما ذهب إليه تلميذه محمد رشيد رضا حينما قال: (إن هدفه كان الاطلاع بنفسه على أحوال المسلمين، وتتبع آثار الإسلام)[1] وقد تبعه في القول بهذا الرأي بعض الكتاب والمؤرخين.

بينما ذهب فريق آخر إلى القول بأن الزيارة، كانت مبادرة فرنسية كان يراد بها أن يستميل الشيخ الوجوه والأعيان والعلماء والمصلحين في الجزائر إلى اتباع الطرائق السلمية في التعايش مع الفرنسيين هذا من جهة، وهناك من جهة أخرى غرض آخر يتجلى حسب قولهم في (جذب الشيخ عبده الذي عاش في فرنسا فترة إبعاده عن الفلك البريطاني)[2] بل يمضى هذا الفريق ليتساءل بعد ذلك (ومن يدري فقد تكون لبريطانيا أيضاً مصلحة في زيارة الشيخ عبده لمستعمرة فرنسية غير عادية كالجزائر)[3].

وظاهر من قول هذا الفريق أنه ربط ـ فيما ذهب إليه من رأي ـ هذه الزيارة بالزيارة التي قام بها الشيخ في تلك الصائفة لكل من بريطانيا وفرنسا حسبما تقدم.

---

(1) مجلة المنار نقلاً عن تاريخ الجزائر الثقافي: 585.

(2) م، ن: 584.

(3) م، ن: 584/ 585.

والمتتبع لأقوال هؤلاء القائلين بأن المبادرة في الزيارة لم تكن شخصية وإنما هي على الراجح مبادرة فرنسية، يستندون على جملة من الأدلة يمكن حصرها في النقاط الآتية:

1 ـ أن الشيخ قام بهذه الزيارة مباشرة بعد زيارتيه إلى بريطانيا وفرنسا، وأن رخصة الدخول إلى الجزائر لا تعطى من فرنسا (إلا لمن تعهد بعدم إثارة الشغب، والخوض في المسائل الحساسة والسياسية)[1].

2 ـ ذكروا أنه وجد الشيخ أبا القاسم الحفناوي في انتظاره بمرسيليا وهو الذي رافقه إلى الجزائر، والحفناوي ـ كما سبقت الإشارة ـ صحفي في جريدة (المبشر) التابعة للحكومة الفرنسية[2] فاستنتجوا من ذلك أنه ترتيب فرنسي رسمي.

3 ـ أن فرنسا المستعمرة كانت تريد بإفساح المجال للزيارة إلى الجزائر ـ تحقيق كسب دولي لمقاومة فكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها في أواخر القرن التاسع عشر السلطان عبد الحميد الثاني، وتحقيق كسب محلي داخل الجزائر، يتمظهر في تزيين صورة استعمارها، وتحفيز الجزائريين إلى التفاعل مع إدارتها فهي (تبحث دائماً عن طريقة يطمئن بها أهل الجزائر لحكومتهم، وتطمئن هي لرضاهم عنها)[3].

ولا شك في أن اهتبال فرصة زيارة عالم في حجم الشيخ محمد عبده ذي الشهرة الواسعة إلى الجزائر تحقق هذين المكسبين في آن واحد.

4 ـ كما ذكروا أن الطريقة التي تم بها اللقاء بين الشيخ عبده والشيخ عبد الحليم ابن سماية عند نزوله في العاصمة كانت هي الأخرى مدبرة ومريبة ولا تخلو من ترتيب فرنسي مبيت على نحو ما حدث له مع أبي القاسم الحفناوي، فقد

(1) تاريخ الجزائر الثقافي: 585.

(2) م، ن: 585/ 587.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي: 589.

قيل إن الشيخ محمد عبده تعرف في باب عزون في العاصمة على (شيخ جزائري يبيع الدخان اسمه محمد بن عمر بن سماية، فكان سبباً في تعريفه بعمه الشيخ عبد الحليم بن سماية، والذي أوصله بدوره إلى السيد مصطفى الأكحل أحد التجار الجزائريين (وكان من أصحاب الثروة والجاه ومن المتعلمين، وكانت داره مفتوحة للجزائريين المثقفين والأجانب، وكان الشيخ عبده لا يكاد يغادر دار السيد الأكحل إلا قليلاً)[1].

5 ـ كذلك استندوا في أدلتهم في إدانة هذه الزيارة بأقوال الشيخ محمد عبده الداعية إلى وجوب المهادنة مثل توكيده على أن الناس في حاجة إلى أن (يعيشوا في سلام وراحة مع من يجاورهم من الأمم الأخرى، ولا يتعلقوا من الوهم بحبال تنقطع في أيديهم متى جذبوها فيسقطوا، فيما لا منجاة منه)[2].

وقد فسروا عبارة (من يجاورهم من الأمم الأخرى) بالمستعمرين الفرنسيين أو ما جاء في رسالته إلى الشيخ عبد الحليم بن سماية التي أرسلها إليه من صقلية بعد رحيله من الجزائر وتونس من تحذير من (النظر في سياسة الحكومة أو غيرها من الحكومات، ومن الكلام في ذلك، فإن هذا الموضوع كبير الخطر، قريب الضرر)[3] واستدلوا من قوله المذكور أنه دعاه وغيره إلى المهادنة والحياد مع الإدارة الفرنسية بل ربما ذهبوا إلى أنه دعا الجزائريين إلى عدم مقاومة الاستعمار الفرنسي.

وليس من غرضي في هذا البحث أن أدافع عن الشيخ محمد عبده أو أزين صورته، ولكن النصفة تقتضيني أن أثبت أدلة موضوعية أرى وجاهتها في مقابل الأدلة المذكورة، وهي:

---

(1) م، ن، 590.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي: 593.

(3) م، ن: 593.

1 ـ أن الكثير ممن أرخوا لهذه الزيارة من الأعلام والمؤرخين الجزائريين من أمثال المؤرخ محمد علي دبوز وعبد الملك مرتاض قد نظروا إليها نظرة خالية من الريبة، بل ذهبت نظرتهم من خلال ما توفر عندهم من وثائق وحقائق مذهب الإعلاء والتقدير لقيمتها، ولم يصدر عنهم غمز في مجرياتها ونتائجها.

2 ـ إن القول بأن طريقة التعرف على الشيخ عبد الحليم بن سماية والشيخ أبي القاسم الحفناوي قبله، لا ترقى ـ في نظري ـ إلى مستوى أن تكون حجة على الشيخ محمد عبده، أو أنها من ترتيب الإدارة الفرنسية المستعمرة، فربما كان هذا التعارف من باب المصادفات وهو جائز، وربما أن عارفي الشيخ من الجزائريين الذين التقى بهم في الشام أو فرنسا هم الذين أشاروا إليه بعنوان ذلك التاجر من أقارب الشيخ عبد الحليم بن سماية ليوصله إلى الشيخ عبد الحليم وليس بالضرورة أن يكون هذا اللقاء ترتيباً من فرنسا، ويرجح هذا الرأي أن الشيخ عبد الحليم نفسه كان من العلماء المصلحين، بل من العلماء الذين ناصبوا الاستعمار العداء، كما ورد في كتب مترجميه ودارسيه[1].

3 ـ الإشارة الواردة في بعض المراجع والقائلة إن بعض عملاء فرنسا وجواسيسها في مصر، حرروا رسالتين عدائيتين ضد محمد عبده إحداهما كتبت من القاهرة، والأخرى من الإسكندرية إلى الإدارة الفرنسية في الجزائر، طلبوا فيهما من الحاكم العام الفرنسي (شارل جونار) أن يحكم القبضة على زيارة الشيخ عبده، لأن الهدف منها في رأيهم (هو تحريض المسلمين على الثورة،و الخروج على الحكومة، ونبذ طاعتها، وأنه قادر على ذلك[2].

4 ـ أن الشيخ محمد عبده ـ استنكر في هذه الزيارة للجزائر اندماج المسلمين المطلق مع الفرنسيين، أو الأخذ بسياسة التجنس، بل حذر من أن يتخلى

(1) راجع محمد علي دبوز (زعماء الإصلاح في الجزائر).

(2) تاريخ الجزائر الثقافي: 586.

المسلم عن هويته وأحواله الشخصية[1] وهذا الاستنكار يخالف السياسة الفرنسية.

5 ـ ما أورده الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه القيم (تاريخ الجزائر الثقافي) من أن الشيخ فوت على فرنسا مقصدها في أن يتوجه ـ عند انتهاء الزيارة ـ إلى فرنسا واستعمارها بالشكر والتقدير، ومدح إدارتها الحاكمة في الجزائر[2].

6 ـ ما أورده أيضاً ـ في مساقات حديثه الموسع عن هذه الزيارة وملابساتها من أن الشيخ محمد عبده كان خلالها ملاحقاً من الجواسيس الفرنسيين الذين (كانوا يعدون عليه أنفاسه، ويتتبعون خطواته ونظراته، فيكتبون عنه وعن زواره التقارير للفرنسيين)[3].

7 ـ كذلك نلحظ أن الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء الجزائريين، ومن أصحاب السابقة في محاربة الاستعمار الفرنسي ـ عندما تحدث عن ذكرى الشيخ محمد عبده التي مرت عليها سنوات عديدة، كتب مقالة مدحية سماها الدكتور عبد الملك مرتاض (تقديسية) وكان مما حلاَّه به يراعه المتميز قوله (الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية، وبعد النظر، وعمق التفكير، وحدة الخاطر، واستنارة البصيرة، وسرعة الاستنتاج، واستشفاف المخبآت، حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى، منقطع النظير في صدق الإلهام، وسداد الفهم، ونصاعة الاستدلال، وتمكن الحجة، موفور الحظ من طهارة الدخلة، والانطباع على الفضيلة)[4].

---

(1) م، ن: 591.

(2) م، ن: 591.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي 586.

(4) عيون البصائر، الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق: 74.

فهذه النعوت الكثيرة في فضائل الشيخ النفسية، والحاملة ـ كما ذكر الدكتور مرتاض ـ (لنزعة تقديسية)[1] تدلنا من قريب وبعمق أن صورة الشيخ محمد عبده وزيارته إلى الجزائر تركتا انطباعاً ممتازاً في نفوس علمائها ومصلحيها، وكتابها وأدبائها سجله قلم الشيخ الإبراهيمي البارع، ولو تطرق إليه بل وإلى أولئك الأعلام شيء من الشك في مقاصده التي تنافي الفضيلة وطهارة الباطن لما حدث الشيخ الإبراهيمي ـ وهو من هو في العلم ومقاومة الاستعمار الفرنسي ـ نفسه بهذا المدح التقديسي حسب قول الدكتور أبي القاسم سعد الله.

والذي أطمئن إليه ـ بعد ما قدمناه من الحجج التي تقف في مواجهة حجج الفريق المذكور، والتي تنفي أيضاً الشبهة عن زيارة الشيخ محمد عبده أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ذكر في كلمته المادحة أن الشيخ في زيارته إلى الجزائر، استطاع بالخصال التي دلَّ عليها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن يستفيد منها في نشر أفكاره وآرائه، وأن يوثق علائقه مع أخوانه المصلحين الجزائريين[2].

أما على المستوى الأول فقد حققه في (إرشاد المسلمين إلى حقيقة دينهم والطريقة المثلى لإحياء لغته)[3] كما حثهم (على تحصيل العلوم الدينية والدنيوية وتوفير شروط الكسب والعمران، وترك صور التصوف الزائف، ودعوتهم إلى أن ينافسوا الأوربيين والفرنسيين في الصناعة والمدنية، وقد أتيح له أن يبث أفكاره هذه في الطبقة المتعلمة والواعية التي كانت ترتاد بين السيد مصطفى الأكحل، كما أتيح له ذلك من خلال درس تفسيره الذي ألقاه في جامع السيد الأكحل بالحامة، حيث فسر سورة (العصر) وحضره مئتان من الجزائريين، وشاركهم بالصدفة وفد مغربي رسمي كان يزور الجزائر أيامئذ[4].

(1) عيون البصائر: الجدل الثقافي بين المغرب.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي: 587.

(3) م، ن: 591.

(4) م، ن: 591.

وأما على المستوى الآخر فقد أحكم صلته بأعلام الإصلاح في هذا البلد، وتبادل معهم الآراء في أشكال التربية والتعليم والتوجيه بالرغم من الجو المشحون بالجوسسة والمتابعة، وممن توثقت صلاته بهم من العلماء والمصلحين الجزائريين:

1 ـ العلامة الشيخ عبد القادر المجاوي، وكان على صلة متينة بالشيخ محمد عبده وشيخه جمال الدين الأفغاني، قبل هذه الزيارة قال أستاذنا محمد علي دبوز (ولما زار الشيخ محمد عبده الجزائر في سنة 1903م كان الشيخ المجاوي من الوفد الذي استقبله وكان من ملازميه ومرافقيه، وقد أعجب الشيخ محمد عبده بالشيخ عبد القادر وبزملائه العلماء المصلحين الذين سنذكرهم، وأثنى عليهم وتوسم للجزائر في ميدان العربية والدين مستقبلاً زاهراً)[1].

2 ـ الشيخ عبد الحليم بن سماية، وهو أول من استقبله في الجزائر وكان معروفاً بالتعليم والإصلاح، وكراهية الاستعمار (وكان طريقه في الإصلاح هو طريق الشيخ محمد عبده في إصلاح النفوس بالدين الصحيح، والقضاء على البدع، وتحسين طرق التعليم في العربية، وإنشاء شباب مسلم عربي، ممتلئ بدينه، يفهم القرآن ويجعله دستوره، قال الشيخ عمر راسم: الشيخ عبد الحليم أول من درس رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده)[2].

3 ـ المصلح الشيخ محمد مصطفى الخوجة الملقب بالمضربة كان من العلماء في اللغة والشريعة ومن الفصحاء البلغاء المقاومين للبدع والخرافات، ومن أتباع جمعية العروة الوثقى وصاحبها، والمتأثرين بأفكار الشيخ محمد عبده ومجلة المنار[3] وقد وجد (في مؤلفات الشيخ عبده وفي مجلة المنار أكبر وسيلة

(1) زعماء الإصلاح في الجزائر: 94.

(2) م، ن: 123.

(3) زعماء الإصلاح في الجزائر: 128.

للإصلاح الذي ينشده، فكان يقرأ المقالات الإصلاحية لرشيد رضا وغيره في مجالسه للناس، ويشرحها لهم ويعلق عليها، ولما طبع تفسير سورة (العصر) للشيخ محمد عبده، وهو جزء من الدرس الذي ألقاه في الجزائر، فرح به الشيخ المضربة كل الفرح فقرأه على الناس عشر مرات في مجالسه، وكان يفعل ذلك بكل ما يعجب به من آثاره الأخرى)[1].

ولقد استحكمت صلة الشيخ محمد مصطفى الخوجة بالأستاذ الشيخ في هذه الزيارة إلى الجزائر فكان من مرافقيه وملازميه،كما قويت بالرسائل التي كان يرسلها إليه فزادت مكانته وقيمته ارتفاعاً في نظره ونظر تلميذه رشيد رضا الذي أثنى عليه وعلى صديقه المصلح الشيخ عبد الحليم سماية إذ قال فيهما (ومن خيار علماء الجزائر الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة صاحب المصنفات، والشيخ عبد الحليم بن سماية)[2].

وقد كانت لقطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش الجزائري من بني يزقن صلات مكاتبة ومراسلة مع الشيخ محمد عبده، كانت علامة على الوداد والترابط بين فكريهما الإصلاحيين قال الشيخ محمد علي دبوز (وممن كاتبه (أي الشيخ اطفيش) من علماء الإسلام، الشيخ محمد عبده)[3].

وعندما توفي الشيخ عبده بعد زيارته الجزائر وتونس، ترك حزناً عميقاً في الجزائر وبخاصة في أعلامها، وانعكس صداه على المعجبين بالشيخ وفكره إثر زيارته إلى بلادهم مثل الشيخ محمد بن القائد علي الذي ضمن ذلك الحزن قصيدته، والجزائري الآخر المرموز له بـ(ع، ز) الذي صاغ أحاسيسه الشاجية في كلمة نثرية معبرة[4]. وكلتا الكلمتين نشرتا في مجلة المنار.

(1) م، ن: 129.

(2) م، ن: 129.

(3) زعماء الإصلاح في الجزائر: 353.

(4) تاريخ الأستاذ الإمام 2: 504.

بيد أن تأثير صلة الشيخ عبده لم يقف على أولئك الأعلام والمصلحين الـذين ذكرنا بعضهم وبعض تلاميذهم فحسب، بل امتد إلى ما بعد وفاتـه عـن طريـق مـا امتازت به شخصيته من قوة واستقلالية، وأفكاره الإصلاحية من حيويـة ونـضج، وآراؤه الثاقبة والباحثة عن الطريق العملية المؤدية إلى الحفاظ على الكيـان والهويـة، ليـؤدي دوره في الجيـل الجزائـري اللاحـق يقـول الـدكتور أبـو القاسـم سـعد الله (ويمكننا القول إن مدرسة الشيخ عبده ورشيد رضـا قـد أثمـرت ثمارهـا عـلى يـد الحركة الإصلاحية بين الحربين، وبالذات على يد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن أبرز دعاتها الشيوخ ابن باديس والعقبى والإبراهيمـي)[1]، وقـد بينـا الـصدى البعيد الذي بلغ حد التقديس ـ على رأي بعض الباحثين ـ والذي تركه الشيخ عبده في أعماق الشيخ محمد البشير الإبراهيمي المذكور، بل إن من الطريف حقـاً أن يمتـد هذا الأثر أيضاً ليؤثر بعد ذلك في الفيلسوف الجزائري المعاصر الأسـتاذ مالـك بـن نبي الذي اعتبر الشيخ عبده مصلح عقيدة حينما قال (كان باعث النهـضة في العـالم الإسلامي هو الشيخ محمد عبده مصلح عقيدة لا مصلحاً اجتماعياً والنمو التاريخي الذي حدث في العالم الإسلامي هو ثمرة مدارس العقيـدة[2]، ومـا مـن ريـب في أن الوجهة الإصلاحية للشيخ عبـده، وآراءه التـي بثهـا في كتبـه، وبخاصـة في رسـالة التوحيد قد أثرت على نحو ما في تفكير مالك من نبـي، وهـو مـا ذهـب إليـه أحـد الباحثين الكبار حيث قال (وفي مذكراته نعلم أنه تأثر منـذ صـغره بمجموعـة مـن المؤلفات ومنها رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده[3].

د ـ صلته بأعلام الإصلاح في المغرب وشنقيط:

لم يكتب للشيخ محمد عبده أن يسافر إلى المغرب الأقصى المعـروف أيامئـذ بمراكش على الرغم من رغبته في هذه الزيارة ـ كما أنه لم يكتـب لـه أن يـسافر إلى

(1) تاريخ الجزائر الثقافي: 595 س.

(2) فكرة الأفريقية الأسيوية: 264.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي: 217.

بلاد شنقيط (موريتانيا) آخر أقطار المغرب العربي جغرافياً، وإن كانت قد تحققت له صلات فكرية، وعلائق ثقافية ومعرفية ببعض أعلامها الذين التقى بهم في مصر أو في غيرها، أو عرفوه من خلال تآليفه وتصانيفه، أو مقالاته وفتاويه. وهو ما أطلقنا عليه الصلات غير المباشرة.

ومن الحق القول إن محمد عبده فكر تفكيراً جدياً في زيارة المغرب الأقصى خاصَّة، ضمن جولته الأخيرة في سنة (1321/ 1903)[1] ضرورة أن هذا البلد العريق بحضارته، والعميق بعطائه السياسي والثقافي كان يمر آنذاك، بأسوأ ظروفه التي تجلت فيها ظاهرة القابلية للاستعمار، ليس من قبل الاستعمار الأسباني الذي احتل أجزاء منه فحسب، بل من الاستعمار الفرنسي الذي كان يعد العدة في تلك السنوات لغزوه، ومنافسة الأسبان في استلاب جزء كبير من أراضيه[2] إلا أن الداء الوبيل الذي كان ينهك جسم الشيخ محمد عبده ـ والذي أفضى به إلى اختصار زيارته للجزائر وتونس ـ حال دون تحقيق هذه الرغبة، وعاقه عن اللقاء بإخوانه المغاربة، وقال آخرون (إن الشيخ عبده كان يخطط لزيارة المغرب سنة 1905، ولكن المرض أودى به، وكان اللورد كر ومر قد أخبر بول كامبون بالداء الخبيث الذي كان يعاني منه الشيخ عبده، والذي توفي به في 27 يوليو 1905)[3].

ويبدو أن بعض رجال الحكومة ووزرائها في المغرب كانوا على علم بهذه الرغبة من الشيخ في زيارة بلدهم، فسارع نجل الوزير محمد الجباس (العباس) إلى الجزائر حيث التقى به في أثناء إقامته فيها، عندما لم يتمكن والده الوزير من اللقاء بالشيخ فيها حينما دخلها بعد مغادرة الشيخ لها[4]، وأغلب الظن أن نجله

(1) تاريخ الجزائر الثقافي: 586.

(2) م، ن: 587.

(3) مجلة المنار عدد 3 مارس 1904/ 327.

(4) تاريخ الجزائر الثقافي: 587.

قد قدم له الدعوة، وأمّل أن يزور الشيخ عبده المغرب على نحو زيارته إلى تونس والجزائر، وربما تلقى هذا النجل وعد الشيخ بالزيارة في سنة (1323/ 1905)، والتي لم يقدر لها أن تتحقق بسبب وفاة الشيخ في السنة نفسها، مهما يكن من أمر فقد تردد فكر الشيخ محمد عبده في أوساط الديار المغربية ومصلحيها عن طريق أفكاره التي بثها في كتبه وفي مقالاته في العروة الوثقى ومجلة المنار، اللتين كانت تصل بعض أعدادهما إليها عن طريق بعض تلاميذه المغاربة الذين أخذوا عنه العلم وجملة من الدروس في الأزهر، أو التقوا به في زيارته الأخيرة في الجزائر أو تونس، أو ربما حتى في باريس، وتلك هي الروافد التي تم من خلالها الجدل الثقافي بين الشيخ وهذه البلاد قال الأستاذ عبد الله كنون في معرض حديثه عن الفكر المغربي، ذاكراً المؤثر الشرقي الذي من ضمنه فكر الشيخ محمد عبده.

ثالثاً: (النهضة الشرقية التي بلغت في هذا التاريخ إلى طور النضج والإنتاج، ولا سيما في مصر، وكانت آثارها ما بين علمية وأدبية وفنية، في الكتب والمجلات والصحف تصل إلى المغرب، فتتلقفها الأيدي بتلهف عظيم، ومنها آثار الشيخ محمد عبده، وتلميذه الشيخ رشيد رضا، وأستاذهما السيد جمال الدين الأفغاني)[1].

كما يذكر لنا تاريخ المغرب أن من أبرز رجالاته المصلحين الذين تتلمذوا على الشيخ محمد عبده في المشرق تلميذه العلامة المغربي المحدث أبو شعيب الدكالي (1356/ 1937)[2] والذي نهض فيما بعد بدور إصلاحي ودعوي كبير في بلاده يشابه دور أستاذه، وكان له الأثر البعيد في تلاميذه الذين هم من رجال الإصلاح الديني في المغرب من أمثال الشيخ محمد بن العربي العلوي، والشيخ محمد السائح، والشيخ محمد الحجوي[3] والشيخ المدني الحسني، قال الأستاذ

(1) أحاديث عن الأدب المغربي الحديث: 33.

(2) راجع كتاب أستاذنا الدكتور عباس الجراري عن هذه الشخصية (أبو شعيب الدكالي).

(3) راجع المصدر نفسه.

كنون في تحلية الشيخ أبي شعيب الدكالي، وبيان دوره (ذلك العالم المصلح الذي قيضه الله للمغرب في هذه الفترة، فجدد سند العلم، وأقام للسلفية مناراً عالياً بما أوتي من التبحر في علوم الكتاب والسنة وما كان له من الفصاحة والمعرفة بطرق الإقناع، فضلاً عن خبرته بأحوال العالم الإسلامي، التي اكتسبها في جولاته بالمشرق)[1].

ولقد شن الشيخ أبو شعيب الدكالي ضمن حركته الإصلاحية بالمغرب حملة شعواء ـ مثل شيخه محمد عبده ـ على الخرافات والأضاليل وصور الانحراف والدروشة، وأزال ماران على العقل المسلم في مرحلة تخلفه من أوهام، كما هجم في دعوته الإصلاحية على أوكار الجهل والبدع، ودعا إلى الإسلام الصحيح النقي، والدين القويم، ونادى بالأخذ بالعلم الذي هو سر الرقي[2]، وسانده في ذلك تلاميذه المذكورين وغيرهم من المصلحين.

ونختم القول في إظهار حقيقة الجدل الثقافي بين الشيخ محمد عبده وأعلام العلماء والمصلحين المغاربة، وصلاته بالنخب العالمة والمثقفة بالإشارة إلى طائفة من علماء شنقيط أو موريتانيا الذين ما فتئوا يزورون الشرق للحجِّ والتحصيل والتعليم والإقامة والسكن، والذين التقوا بالشيخ محمد عبده في دروسه بالرواق العباسي في الأزهر، أو في داره أو في الدور العلمية والرسمية التي كان يغشاها، ونكتفي في التدليل على هذا الجدل والتأثير والتأثر ضمن الحوار الإيجابي الدائم بينه وبينهم بالإشارة إلى الصلة المحكمة التي انعقدت بينه وبين العلامة الشيخ محمد محمود التلاميذ التركزي الشنقيطي[3] الذي كان يطلق عليه (أصمعي عصره)[4] وقد أقام الشنقيطي في مصر زمناً طويلاً استحكمت خلاله صلاته

(1) أحاديث عن الأدب المغربي الحديث: 32.

(2) عباس الجراري (أبو شعيب الدكالي).

(3) راجع بعض أخباره في رحلته المسماة الرحلة التركزية، وفي كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

(4) شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون: 57.

بالشيخ محمد عبده وعلماء مصر في عصره، وقد حلاَّه السيد محمد رشيد رضا بقوله: (العلامة المحدث الذي انتهت إليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار، لا سيما علم الرواية للحديث الشريف، ولأشعار العرب المخضرمين)[1].

ومما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا متصلاً بسياق الجدل الثقافي والحوار الفكري بين هذين العالمين، أن جماعة من المغرضين انتقدوا (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده، ذاكرين أن فيها نزعة اعتزالية، وأنها لا تخلو من الشبهات، وراجعوا في ذلك العلامة محمد محمود الشنقيطي الذي بادر إلى قراءة الرسالة، بل قصد عقب القراءة بيت صديقه محمد عبده، حيث أعادا قراءتها في يومين (حتى زال الأشكال، واعترف الشنقيطي للمؤلف بالإصابة، وقول الحق كما أن الأستاذ الإمام سلم بما رآه من القول الراجح من مناظره ونظيره وصديقه)[2].

على أن مظهر الإنصاف ـ أمام المؤيدين والمعارضين للشيخ محمد عبده إنما تجلى من هذا العلامة المغربي الذي حضر نفسه الدرس الذي يلقيه الشيخ في الرواق العباسي ـ حيث وجده يبسط للحضور رأي الشيخ الشنقيطي في أمانة وإعجاب ـ فما كان منه بعد نهاية الدرس إلا أن وقف، وتحدث في روعة عن رسالة التوحيد وعمقها، (ثم ألقى قصيدة عامرة نوَّه فيها بمزايا الأستاذ الإمام، وعلو قدره)[3].

وصفوة القول: إن صلات الشيخ محمد عبده في أخريات حياته خاصة بأعلام الإصلاح في المغرب العربي بأقطاره مجتمعة ثابتة ومؤكدة بالطرق المباشرة وغير المباشرة على نحو ما أوضحناه في البحث، ودللنا عليه وربما مثلت هذه

---

(1) مجلة المنار، نقلاً عن المصدر المذكور: 56.

(2) شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون: 58.

(3) م، ن: 58 وقد كان صهر الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي الشيخ محمد الجنيبهي على خلاف رأيه منه فقد وضع كتابا أو أكثر تعرض فيه للشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني بالنقد، وبين خلالهما وسلوكهما على ما شاهده منهما على خلاف الصورة المشرقة التي شاعت حول حياتهما، راجع الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين.

الصلات أقوى الوشائج، وأمتن العلائق بين مصلح من المشرق من مصر، وبين العلماء المصلحين في المغرب العربي بأقطاره المتعددة، وهو ما أغفل ذكره وتفصيله الباحثون المشارقة من قبل في بحوثهم ودراساتهم.

فقد استقى الشيخ محمد عبده مادة سعادته الروحية في طفولته ـ على نحو ما ذكر نفسه من الشيخ درويش خضر الذي أفاده بالأوراد والمعارف الصوفية التي استقاها من الزوايا الصوفية في البلاد الليبية،وبخاصة الزاوية المدنية كما أنه أفاد فيما بعد هذه البلاد وزعماءها، وأيضاً العلماء والمصلحين في تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا بعلمه واجتهاده وفتاويه وطرائقه العملية الهادئة في الإصلاح الجامع بين الدين القويم في نقائه وشموليته وعمقه، وبين العلوم الجديدة والمستحدثة في تقدمها، جامعاً في ذلك بين «العقل والنقل والتجربة والوجدان»[1] مع ما كان يدعو إليه من النهوض بالأمة أو القاعدة بدل اعتماد مبدأ الثورات والانقلابات السياسية والتنظيمية السرية وهو المذهب الذي خالف فيه شيخه جمال الدين الأفغاني.

ولئن كان حظ هذه الأقطار المغربية من الاستفادة بهذه الصلات متفاوتة، إذ كان النصيب الأكبر منها لتونس والجزائر اللتين زارهما والتقى بعلمائهما، وألقى المحاضرات في بعض جوامعها ومجالسها، وعقد الأسمار والمطارحات في جملة من ربوعها فإن تأثيره غير المباشر امتد إلى بقية تلك الأقطار عن طريق مؤلفاته وآثاره مثل رسالة التوحيد، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية وأيضاً عن طريق مقالاته وفتاويه وآرائه التي كانت مجلة المنار مجلى مهماً لها، كما أنه كان في المقابل سبباً رئيساً في انتشارها وتأثيرها في الأقطار المغاربية.

وما من ريب في أن ذلك التأثير العلمي والإصلاحي قد أحدث في الجملة الأثر البالغ على الوجهة الإصلاحية في بعض تلك الأقطار، سواء في فريق

(1) المدرسة الفكرية والمشروع الفكري: 10، 11.

أنصاره المصلحين المعجبين والمتأثرين بمنهاجه، والذين أيدوه بمقالاتهم، ونصروه بأمداحهم، وساروا على هداه في إصلاحهم، أو في الفريق الآخر المناوي الذي ناصبه كما ناصب تلاميذه العداء. مما أسهم في إيجاد حركة فكرية وعقلية عربية وإسلامية نشيطة.

وقد ظهر هذا التأثير والتأثر في شخصية محمد عبده وفي الحركات الإصلاحية في البلاد المغربية في حياته، وبعد وفاته فيما أشرنا إليه من حركة جمعية العلماء الجزائريين ومن إصلاح جامع الزيتونة بتونس وغيرهما من الحركات العلمية والتحررية الثائرة على مظاهر الجمود.

وقد ذهب الدكتور عبد الملك مرتاض إلى أن رحلة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر (ساهمت في وجود حركة إصلاحية في الجزائر على النقيض من تونس والمغرب وليبيا)[1] والتي لا نجد فيها حسب رأيه ـ (إلا حركات إصلاحية ضعيفة لم تبلغ قط ما بلغته في الجزائر)[2]، ومع التسليم ببعض ما ذهب إليه من هذا التأثير في الجزائر، فإننا قد بينا بالأدلة ظهور حركات إصلاحية إسلامية في المغرب العربي كانت سابقة لزيارات الشيخ عبده ولظهور مؤلفاته فيه، مثل الحركة السنوسية والمدنية والكاملية في ليبيا، وحركة خير الدين باشا ومحمود قابادو والجنرال حسين في تونس والحركات الإصلاحية في الجزائر التي أشاد بها الشيخ محمد عبده نفسه وإن أقوى تأثيره إنما كان في رأينا ـ في البلاد التونسية التي زارها زيارتين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ تفاعل خلالها مع المصلحين ـ شيوخاً وشباباً تفاعلاً كبيراً، وقد جلا البحث بعضه، استئناساً بما ذكره تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا والعلامة محمد الفاضل ابن عاشور.

(1) الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق: 74، 75.

(2) الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق: 74، 75.

وقد تكفل البحث في مساقاته ببيان الوجهة الإصلاحية العملية وأبعادها للشيخ محمد عبده والتي صارت تميل في أخريات حياته بالرغم مما قيل في انتماءاته قبل هذه المرحلة للمجامع السرية التي اتضحت له شبهتها وانحرافها - إلى الاعتدال والأصالة والعمل لصالح الإسلام والمسلمين، إذ لم يثبت لنا من خلال ذلك الاستقراء في تلك الصلات أنه دعا المصلحين المغاربة إلى تنظيمات سرية مشبوهة، أو جاهر أمامهم في هذه الأقطار بفائدة المحافل الماسونية، ولم يذكر معاصروه أو المؤرخون بعده أنه ناصر في صلاته المباشرة وغير المباشرة الاستعمار الفرنسي أو غيره، والمقدار الذي تركته وجهته الإصلاحية في مسير الإصلاح الديني والسياسي للأقطار المغربية، وبخاصة في تونس والجزائر، وقد نفى البحث بأدلة وجيهة الشبهات التي أثيرت عن صلاته بهذه الأقطار وارتباطها بالرؤية الفرنسية وإدارتها، وأكد - حسب المعطيات المتوفرة أنها زيارات ودية إصلاحية تشاورية خالصة من الغرض والهوى وهو ما أكّده الكثير من زعماء الإصلاح المغاربة ورواده بلسان الحال ولسان المقال.

مصادر البحث ومراجعه

1 ـ أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، عبد الله كنون ـ القاهرة ـ معهد الدراسات العربية العالية، 1964.

2 ـ أحمد الفقيه حسن (الجد) وتحقيق ما تبقى من آثاره ووثائق، د/ محمد مسعود جبران ـ ليبيا، مركز دراسة جهاد الليبين، 3.1988.

3 ـ أدباء تونسيون، رشيد الذوادي ـ تونس 1972.

4 ـ الأسس النظرية في مناهج البحث الأدبي العربي الحديث، د/ عبد السلام الشاذلي، مصر، دار الحداثة، 1989.

5 ـ أضواء على تاريخ تونس، البشير بن الحاج عثمان الشريف ت تونس، دار بوسلامة للطباعة.

6 ـ الإسلام والحضارة الغربية، د/ محمد محمد حسين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982.

7 ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت، لا مط، ط3.

8 ـ أعلام ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1381.

9 ـ أعلام من الزيتونة، محمود شمام، تونس، الشركة التونسية الفنون الرسم 1417/ 1996.

10 ـ أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، صلاح زكي أحمد ـ القاهرة ـ مركز الحضارة العربية، 2001.

11 ـ الأفغاني ومحمد عبده (يردان افتراءات المستشرقين على الإسلام والمسلمين أبو بكر عبد الرزاق، مصر، مكتبة مصر، 1992.

12 ـ الإمام محمد عبده، رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث، السيد يوسف عصر، دار الآفاق الجديدة، 1999.
13 ـ الإمام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي، د. عبد الله شحاتة ـ مصر.
14 ـ الإمام محمد عبده، عبد الحليم الجندي، مصر، دار المعارف، ط2: 1987.
15 ـ بلايا بوزا، محمد الجنبيهي ـ مصر ـ 1926.
16 ـ تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا القاهرة.
17 ـ تاريخ الجزائر الثقافي، د/ أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
18 ـ تاريخ الصحافة العربية، فيليب دي طرازي، بيروت، المطبعة الأدبية، 1913.
19 ـ تراجم الأعلام، محمد الفاضل بن عاشور، تونس، الدار التونسية النشر.
20 ـ التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، الطاهر الحداد تحق محمد أنوار بوسنية ـ تونس الدار التونسية 1981.
21 ـ الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق، د/ عبد الملك مرتاض، الجزائر، دار الحداثة، 1982.
22 ـ جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي، مصر، دار المعارف، 1991.
23 ـ جمال الدين الأفغاني، عثمان أمين، القاهرة، دار الثقافة للنشر.
24 ـ الحركة الأدبية والفكرية في تونس، محمد الفاضل بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر.
25 ـ حصاد العمر، أبو القاسم محمد كرو الكويت مؤسسة البابطين، 1998.
26 ـ حوليات الجامعة التونسية ع3 ـ س 1966، ع5، 1968.
27 ـ رواد الإصلاح، رشيد الذوادي، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000.

28 ـ الحوليات الليبية، شارل فيرو، تر، محمد عبد الكريم الوافي ـ ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر.
29 ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1965.
30 ـ زيارتا الشيخ محمد عبده لتونس، المنصف الشنوفي ـ الحوليات التونسية ـ الجامعة التونسية.
31 ـ سليمان الباروني (آثاره)، د/ محمد مسعود جبران، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب 1991.
32 ـ الشرق في فجر اليقظة، أنور الجندي ـ مكتبة الأنجلو المصرية لات.
33 ـ شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، محمد يوسف مقلد، الدار البيضاء، مكتبة الوحدة العربية 1962.
34 ـ صحافة ليبيا في نصف قرن، علي مصطفى المصراتي، بيروت، مطابع الكشاف، 1960.
35 ـ عيون البصائر، محمد البشير الإبراهيمي، الجزائر.
36 ـ فكرة الأفريقية الأسيوية، مالك بن نبي، تر عبد الصبور شاهين مكتبة دار العروبة، القاهرة 1957.
37 ـ في تاريخ العرب الحديث، رأفت غنيمي الشيخ ـ القاهرة، دار الثقافة، 1975.
38 ـ ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، فرانشسكو كورو، تر، خليفة محمد التليسي، طرابلس دار الفرجاني لآت.
39 ـ ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، أحمد صدقي الدجاني، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة.
40 ـ مجلة المنار، محمد رشيد رضا. القاهرة.

41 ـ مجلة كلية الدعوة الإسلامية، محمد مسعود جبران ـ محمد الطاهر بن عاشور والإصلاح التعليمي ع 1، س 1.
42 ـ محمد عبده، عباس محمود العقاد، مصر، مكتبة مصر، لات.
43 ـ محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا، د/ محمد مسعود جبران، ليبيا، مركز دراسة جهاد الليبيين ط1، 1966.
44 ـ المدرسة الفكرية والمشروع الفكري، د. محمد عمارة ـ القاهرة ـ نهضة مصر، 1997.
45 ـ ميلاد دولة ليبيا محمد فؤاد شكري، القاهرة =، مطبعة الاعتماد، 1957.
46 ـ ومضات فكر، محمد الفاضل بن عاشور، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب 1982.